سابعًا: أخلاق (العقيلات) وصفاتهم.

قال محمود سامي البارودي:

إذا أنا لم أُعطِ المكارمَ حقَّها فَلا عَزَّني خالٌ ولا ضَمّني أبُ

(العقيلات) من بلاد نجد التي هي منبع دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله -. وهذه الدعوة لها الأثر الكبير في العالم الإسلامي عمومًا، وفي أهل نجد خصوصًا، حيث هذّبت سلوكهم، وخلّصتهم من الشركيّات والبدع والخرافات وغير ذلك. وأهل نجد كلهم عرب أقحاح؛ طباعهم طباع العربي الأصيل، التي لم تشبها شائبة، ولأن (العقيلات) كالرحالة، بل هم أشد بسبب تعاملاتهم التجارية مع البلدان العربية، واحتكاكهم بالمجتمعات الأخرى حاضرة وبادية، ورحلاتهم مستمرة، فقد صقلت رحلاتهم تلك الأخلاق الفاضلة، والصفات الحميدة، فازدادت رونقًا وبهاءً ونورًا على نور، ومن أهم تلك الصفات: الشجاعة، والكرم، والأمانة، والصدق، والمروءة، والإيثار، وحسن النية، والثقة بالنفس، والصبر، والنباهة، وحسن التعامل، والوفاء، والنخوة، والفكر، والمعرفة، والمزاح والطرفة بينهم، وغير ذلك، وسنضرب بعض الأمثلة على ذلك إن شاء الله، ومن أراد أكثر تفصيلاً وإيضاحًا فليراجع مشكورًا تراجم (العقيلات).

وقد يُوجَد منهم أفرادٌ يخالفون بعض تلك الصفات والأخلاق، ولكنهم شواذ، والشاذ لا حكم له، ولم يكن لهم شأن يذكر، ومع ذلك فهم منبوذون من أبناء جلدتهم، لا يرضونهم بالإقامة بين ظهرانيهم. والحكم للأغلب، واقرأ ما كتبه عن هؤلاء (العقيلات) المستشرقون والرحالة والمؤرخون وغيرهم.

قال الأستاذ سليمان الدخيل: «أخلاقهم هي أخلاق العرب الأقدمين العزيزي النفس، المتوقدي الذهن، الأذكياء، الشهام، الأباة، أخلاقٌ لم تغيرّها الحوادث والأزمان، فهم اليوم أهل كرم وشجاعة وسماحة وحمى ودخالة[1]».

(١) محسن غياض عجيل سليمان بن صالح الدخيل النجدي الصحفي السياسي المؤرخ: ص٥١.

وصفت الرحالةُ بلنتُ العقيليَّ الذي رافقها وزوجها في إحدى الرحلات، فتقول عنه: «إنه أحسن من رافقها أخلاقًا، وأعلاهم همة، وأكثرهم أهلاً للثقة، ويضيف زوجها ولفرد بلنت: إن له خيالًا خلاّقًا، وذكاءً دفّاقًا[1]».

قال محمد كرد علي الذي رافق العقيلي (عبدالعزيز المحيسني) من الشام إلى مصر: «ولم أسمع في أربعة عشر يومًا (أي من الشام إلى مصر) بلياليها كلمة هجر وبذاء، ولا تجديفًا ولا لعنًا، ولا نميمةً ولا غيبة، ولا كذبًا ولا منكرًا، وكان أولئك (العقيلات) مواظبين على صلواتهم، يتيممون بالرمل إذا أعوزهم الماء، ولا يسرفون فيه إذا وُجِد، وأنست بلهجتهم، وفيها كثير من الفصيح، ولها رنة تطربك[2]».

قال عبدالعزيز عبدالغني: «شهد للعقيلات بتمسكهم بدينهم كلُّ من رافقهم من النصارى واليهود، رحالة كان أم تاجرًا، شهد هؤلاء للعقيلات بحسن الخلق، وبالعقل الراجح، والذكاء المتقد، وبالشجاعة، والأمانة، وغير ذلك من صفات المسلم الحق[3]».

وقال أيضًا: «يتصف (العقيلات) بالقناعة في تناول الطعام، كذلك بالبساطة في عاداتهم، ويتميز سلوكهم بالخلوّ من جميع أنواع التكلف، ويتصرف هؤلاء القوم على سجيتهم، ويبدون شتى ضروب الفداء، وهم غيورون على دينهم في غير تعصب، ويبتعدون تمامًا عن تناول المشروبات الروحية وكلّ المسكرات، ويهتمون بأمر دينهم اهتمامًا كبيرًا، ويراعون أوقات الصلاة بشكل دقيق، يطيلون الصمت والتأمل، ويكثرون الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم[4]».

قال العقيلي (عبدالله بن عبدالكريم الطويان): إن جماعة من عقيل ومن غيرهم اشتغلوا عند يهودي في الغربية في شهر رمضان، فقال لهم: الذي يفطر له أجرة مضاعفة عن أجرة الصائم. فقال: مَنْ يريد يرفع يده؟ فرفع بعضهم أيديهم وهم عدد قليل، ورفض الأغلبية عرضه، وهم من عقيل.

---

(١) رحلة إلى بلاد نجد.

(٢) مذكرات محمد كرد علي.

(٣) نجديون وراء الحدود: ص٢٤٧- ٢٤٨.

(٤) نجديون وراء الحدود: ص١٨٤.

فقال لهم اليهودي: إنكم رجال تحافظون على دينكم، ثم طرد الذين وافقوا على الإفطار، وضاعف الأجرة للصائمين، وقال: أنتم أهل صدق وإخلاص.

ذكر العقيلي سليمان بن محمد الجربوع أنه اشتغل في فلسطين عند مزارع نصراني في بستان برتقال، وكان يعرض عليه الطعام، ويرفض، وفي يوم لزم عليه بالأكل، فقال له سليمان: إذا جئت مرة ثانية، فأحضر معك فرخة، فعرف النصراني سبب امتناعه عن الأكل، وهو الخوف من لحم الخنزير.

فقال النصراني: (برافو) عليك، تمسك بدينك، وصار يحضر له دجاجًا كلما جاء إليه.

يقول سليمان: فلما انتهى موسم البرتقال قال الرجل: احضر عندي في دكاني تبيع معي الحبوب في السوق، فوافقت، ولما جاء النوم أدخلني معه في بيته بجوار دكانه، ولكن كانت عنده بنات، فلما جاء الليل خرجت خارج البيت، ونمت. فلما أصبحت، ورآني خارج البيت قال: لماذا تنام خارج البيت؟ فقلت له: نحن العرب ما ننام إلا ونحن نرى النجوم، فضحك من كلامي. (وكان قصد الجربوع أن يبتعد عن البنات).

الكرم:

من الصفات التي تميز بها العربي المسلم الكرم، ولكنها عند (العقيلات) عظمت، ويرجع ذلك لأسباب كثيرة، منها:

١) إن كل أمير من عقيل له معاونون وحراس، ورعاة وطباخون. وهو مسؤول عن إعاشتهم، وما يتبعها، علمًا أن الرحلة تستغرق شهورًا قد تصل إلى السنة ذهابًا وإيابًا، وما دام أن هذه حاله، فلا بد أن يكون كريمًا، وإلا فلن يستطع الاستمرار في مهنته تلك.

٢) في كل بلد يقطنه (العقيلات)، أو سوق يتجرون فيه، يكون فيه سماسرة من أنفسهم، وعمدًا يعرفون على جماعتهم، فهؤلاء لهم مضافات وديوانيات يتجمع فيها (العقيلات) غير المقيمين، ويقصدها البدو الذين لهم معاملات معهم. وهذه المضافات فيها الاستعداد التام؛ من مجلس وغرف نوم وطباخ ومباشر بالقهوة (قهوجي). وهذه قمة الكرم والضيافة.

قال الشاعر صالح السعيد، أحد شعراء بريدة، في قصيدته (الحمية) مادحًا أحد (العقيلات) الذين في فلسطين:

خله تهبط الغور ثم تجعله ... خلف عن المرجة بشوق أقرانها
ثم عقب ليلين وليل روحت ... على معاطن عبرها ما هانها
دولابها الكبري وفاتت بعد ذا ... مناخ ريف اللي تخب أرسانها
هو مزبن المضيوم ينبوع الندى ... أحمد منادي للعشا جوعانها
أحمد ولد عبدالعزيز المشتهر ... مفني أرقاب الكرم مع خرفانها
تلقا بديوانه دلالٍ كنها ... وز تكلف خدمها سلمانها
وفرشٍ ورايات شقن إبيته ... وقدور تشكي لهب نيرانها
تلقا بديوانه مجامع لابتي ... كل يقول الزمل ويش أثمانها

٣) نظرًا لمرور (العقيلات) في أثناء حلّهم وترحالهم بأمراء البلدان، ومشايخ القبائل، فقد كوّنوا معهم علاقةً قويةً، فكانوا يقدمون لهم الهدايا بأنواعها؛ لكف شرهم تارةً، ولصداقتهم تارةً آخرى.

٤) (العقيلات) لهم معاملات تجارية مع إخوانهم العرب في البلدان العربية. وقد اشتهر عنهم مع إخوانهم تبادل الهدايا مما أوجبه عليهم خلقهم العربي، وطبيعة عملهم.

ولغير ذلك من الأسباب.

قال أحد شعراء (العقيلات):

لا رزقنا الله ما حنا بخلان ... من رزقنا ترزق أيدينٍ كثيراتِ

ما حنا: ما نحن، بخلان: جمع بخيل.

«عيسى الرميح: من أمراء (العقيلات) إذا خرج على رأس القافلة مهما كان عددهم، ينادي المنادي: (اسمعوا يا عقيل)! غير مسموح لأحد بأن يوقد النار.المضيف مفتوح للعقيلات ورجاجيلهم. وقد تعود (العقيلات) على ألا يعصوا أمرًا يقره (عيسى الرميح).

يقول أحد (العقيلات): سافرت مع ركب (مجموعة) عام ١٣٥٦هـ، وكانت القافلة تزيد على مئة وخمسين شراعًا. وتجمعنا في (مورد قصيبا)، وكان بها عين ونخيل لعيسى

الرميح، فشربت القافلة، وتجهزنا للمسير. فصاح المنادي: غير مسموح لأحد بأن يوقد نارًا طوال رحلة القافلة من قصيبا، حتى وصولنا إلى عمان. ورجال القافلة من تجار وغيرهم يأكلون، ويشربون في شراع عيسى الرميح.

ونزلنا على الغور (وادي الأردن)، وأقمنا الشتاء ما بين أريحا والفارعة في الضفة الغربية لنهر الأردن، وأقيمت المخيمات، وعددها يزيد على مئة وخمسين شراعًا، وفتح المضيف للأكل والشرب. وطوال الشتاء والجميع يأكلون، ويشربون على حسابه.

وإذا جاء شهر رمضان المبارك، أقام ديوانية في مدينة القدس، وبيتًا كبيرًا يقيم فيه الولائم للفقراء والمساكين، حتى ذاع صيته لدى الحاكم العسكري في مدينة القدس، وهو إنجليزي، فدعاه إلى مكتبه، لكنه لم يذهب، بل صرف الرسول قائلاً: «إذا أرادني عليه الحضور إلى بيتي المفتوح. وهذه دعوة مني للحاكم لزيارة معسكرنا في الغور، فما كان من الحاكم إلا الذهاب إليه، وكانت حفلة كبيرة دعي إليها الحاكم وكبار المسؤولين، ودأب الحاكم بعد ذلك على زيارة عيسى في بيته في القدس، وفي المخيم، حيث تقام الولائم التي يحضرها الجميع.

وفي إحدى الولائم قدم إليه الحاكم وثيقة موقعة بإقطاعه أرضًا تمتد من شمال (عين أريحا)، حتى مرتفع جبل الفارعة وقرب نابلس. لكن عيسى رفض هذه الوثيقة، شاكرًا الحاكم على هديته قائلًا: «إن ما أقوم به من خدمات لأبناء بلدي، وما أقوم به من إطعام للمساكين، إنما هو طبيعة وهبها الله لي، ولا أنتظر إحسانًا من أحد، وخاطبه بلهجته النجدية: إن حضارًا بالصيف في نخلي بقصيبا، تسوى عندي الدنيا وما فيها[1]».

الحضار: هو العريش من سعف النخل، يكون بين النخيل، يجلسون فيه وقت الظهيرة للتبرد.

واشتهر محمد العبدالله البسام، وهو من أمراء (العقيلات) بالكرم، وذاع صيته لدى الحكام. وأيام حكم الأمير محمد العبدالله الرشيد لنجد، كان مارًا بمدينة حائل، فحضر للسلام على الأمير، وفي مجلسه بدأ الأمير يداعب ابن بسام قائلاً: يا محمد، أنت (تدور حكم) في كرمك وعطاياك. فرد عليه قائلاً: «يا طويل العمر، الحكم يبي أهله، وأنا رجل

(١) إبراهيم المسلم: العقيلات، ص٢٣٣.

openkanal.com

تاجـر أدور المكسـب، وإذا ربحـت تجارتـي العشر عشرين، نجود من فضلـه على الناس. وهذا مكسبنا من التجارة. ما ندور حكم إلا دعاية لبلادنا وسمعته».

«وحمـود الـبراك مـن أمـراء (العقيلات). في عـام ١٣٤٠هـ حصـل وباء في الشـام أصاب الكثـير مـن الناس، وأصاب من (العقيـلات) ثمانين شخصًا، فخاف حمـود عليهم، فما كان منـه إلا أن ذهـب إلـى أحـد النجارين، وطلـب إليه أن يعمـل كوايج (هوادج) عددهـا أربعون، وبعـد أن جهزهـا النجار، اشترى خمسين حصيرة، ووضـع الهوادج على أربعين منها، وحمل كل اثنين على جمل، وجهز باقي الجمال بالأمتعة والأكل، وخرج بهم من الشام إلى بلادهم، يعولهم وهم مرضى، وبعد أن خرجوا إلى الصحراء، وقابلهم هواء الصحراء العليل رفع الله عنهـم ذلـك الوباء، وشفي الجميع، فعند ذلك أوقدوا بالهـوادج، وركبوا الجمال عائدين إلى بلادهم، شاكرين لحمود هذا الكرم والوقفة النبيلة[1]».

قـال المستشـرق ألـبرت سوسـين: «الزقـرت المرافقـين لعقيـل ليسـوا مـن أغنيائهم، (كالراعـي والملحـاق والطبـاخ)، شرقـوا مـن حلـب يريـدون بغـداد، وقابلهم عقيـل مغربين يريـدون حلـب، ودعاهـم (العقيـلات) وأكرموهم؛ بالنهـار حنيني (أكلة عنـد أهل نجد من البر والتمر والسمن)، وبالليل ذبائح وتمن (رز العراق). ولما رجع (العقيلات) قابلوهم عند تكريت، ولم يدعوهم للضيافة أو يكرموهم، فقال أحد زقرت عقيل هذه الأبيات:

يـا ابـن زهـير انـدار عـزّ عقيل	الـكـارّ صـار بغـيـة الحـرقـان
مـا يـلتقي إذا ثـار عـج الخيـل	مـا هـوب محسوب من القصمان
اللـي بصوب الـروم راس عقيل	يـصـير عـنـد المـوزمـة كـرعـان
أولاد عـلـي لـلمـصـاحـب سيل	يحيي الهشيم وينبت الريضان
وإن حاربوا شخص طواه الويل	اللـي يخلّونه على الـديـران[2]

- ابن زهير: من رجال عقيل، اندار: انتكس، الكار: الطبع.
- إذا ثـار عـج الخيـل: إذا قامـت الحرب، ما هـوب: ليس، القصمان: أهـل القصيم.

(١) من ذاكرة الأستاذ (حمود بن عبدالله بن حمود البراك) في أثناء زيارتي له في مكتبه بالرياض.

(٢) ألبرت سويسن: ديوان من وسط الجزيرة العربية، ط١، ص٢٠١- ٣٠١. بتصرف.

- بصوب: بجهة، الروم: في الشام وما حولها، كرعان: جمع كراع. ومعنى البيت: أن الذي في الشام من علية القوم يصبح عند هؤلاء في العراق كرعان.
- البيت الرابع يثني الشاعر فيه على جماعته بأنهم كالمطر في نفعه للأرض التي تنبت الأرض، وتحيي الهشيم.
- طواه: أحاط به، الويل: العذاب.

الشجاعة:

مما تميز به العرب الشجاعة منذ زمن الجاهلية، فلما جاء الإسلام، أسلموا، فهذب الإسلام أخلاقهم، واجتمعت كلمتهم، وتوحدت صفوفهم، فازدادوا قوة إلى قوة، وشجاعة إلى شجاعة، ففتحوا البلدان، ومصروا الأمصار، وسقطت على أيديهم أكبر القوى العسكرية في ذلك الوقت؛ الفرس والروم، واستمروا على ذلك الحال حتى انقسم العالم الإسلامي إلى دويلات، فانشغلوا ببعضهم، وضعفت قوتهم، وطمع فيهم أعداؤهم، إلا أن الشجاعة والقوة باقية فيهم أفرادًا وجماعات صغيرة، فمتى بدينهم تمسكوا، واجتمعت كلمتهم، وتوحدت صفوفهم، فإن مجدهم وعزهم سيعود لا محالة بإذن الله.

ومن المعلوم أن (العقيلات) جزء من العنصر المسلم العربي، فهم أحفاد أولئك، إلا أن طبيعة عملهم، وترحالهم في الصحاري والقفار، وتعرضهم للأخطار، جعلت الشجاعة من أبرز صفاتهم؛ نظرًا لما يتعرضون له من قطاع الطرق وغيرهم، فهم مطمع بسبب تجارتهم وما يتبعها، ولا شك أن البلاد العربية في تلك الأوقات كانت على شكل إمارات، كل بلدة لها أمير مستقل، وكل قبيلة لها شيخ، فلا اتفاقيات، ولا حدود، فكلٌ يتربص بالآخر، فالقوي يأكل الضعيف، وهذا ما زاد الأمر تعقيدًا، ولكن (العقيلات) بسبب شجاعتهم وحسن علاقتهم بالأمراء ومشايخ القبائل، استطاعوا أن يتجاوزوا تلك الظروف، إلا أنهم أحيانًا يتعرضون للغزاة، أو يكونون في بلدان الأمن فيها مختل، ما يجعلهم يدافعون عن أنفسهم وأموالهم بقوة، بل بشراسة. فمن هنا برزت شجاعتهم، فالجبان ليس من رفاقهم، ولا يستطيع أن يمتهن مهنتهم.

ومما يؤكد شجاعتهم اشتراكهم في كثير من الحروب والأحداث الكبيرة، كحرب أحداث البصرة عام ١١٨٨هـ، وعام ١٢٤٢هـ، وأحداث بغداد عام ١٢٠١هـ، وعام ١٢٣١هـ، وأحداث القصيم ما بين

١٣٢١هـ حتى عام ١٣٢٦هـ، ومعركة ميسلون في سوريا عام ١٣٣٥هـ. وللمزيد انظر: الفصل الثاني (أثر (العقيلات) في بريدة تاريخيًا، وأثر (العقيلات) في البلدان العربية تاريخيًا).

قال لورنس العرب: «يتميز (العقيلات) بقيادتهم للجمال، وبشجاعتهم الفائقة في ميادين القتال[١]».

وقال ولفرد بلنت: «صفات القوة والفتوة، وعدم الاهتمام بالأخطار والمهالك، هي التي أهّلت (العقيلات) منذ نشأتهم ليكونوا جنودًا عرفهم العراق العثماني أولًا، ثم شهدت لهم بذلك بعدئذ معارك نجد والقصيم خاصة[٢]».

يقول الأستاذ عبدالعزيز عبدالغني: «لقد عرف (العقيلات) هؤلاء بالشجاعة، حتى لقبوا بأسود الصحراء، وعرفوا بالوفاء، وبالأمانة، فلا تضيع عندهم الوديعة أبدًا. يدافعون عن أموال الغير بالغيرة نفسها التي يدافعون بها عن أموالهم[٣]».

قال الرحالة لوي جاك روسّو: «(العقيلات) شجعان حقًّا، وشجاعتهم معروفة عند الجميع حتى استحقوا بكل جدارة اسم (أسود الصحراء)».

وقال أيضًا: «الرحيل من بغداد إلى الهبنة، بقيادة العقيلي منصور العبيدي، وهو رجل صاحب خبرة طويلة على ما يظهر، وشجاع، ويتصف بالأمانة[٤]».

قال الشاعر عبدالله بن محمد الوني يذكر شجاعة (العقيلات):

لا والله إلا بان للهجن ميعاد	بان الوعد من طيبين العلومي
أولاد علي مهدية صعب الأضداد	مهدية صعب الحصان العزومي
حموا بريدة هم عريبين الأجداد	الترك دونه كوّموهم رجومي
عاداتهم عند اللقاء كعم الأضداد	عند اللقاء وجيهة ثلومي
يا وني عيني حاربت نوم الأجواد	يا كثر هوجاسي ويا قل نومي

(١) أعمدة الحكمة السبعة: ص٥٤٢.
(٢) رحلة إلى بلاد نجد.
(٣) نجديون وراء الحدود: ص١٨٤. (نخوة أهل العارض نجد).
(٤) الرحالة لوي جاك روسّو: رحلة إلى الجزيرة العربية، ص٢٤، ص٦١.

ولم تقتصر شجاعة (العقيلات) ودفاعهم على أنفسهم، وفيما بينهم أو لأهل بلدهم، بل تعدت إلى ما هو أبعد من ذلك، فشملت كل مضيوم يرون بمقدورهم إغاثته وحل معضلته. وإليك قصة تدل على شجاعتهم، وإغاثتهم للمظلوم، وذلك بإخراجهم الشيخ فرهود من سجن الترك، فهذا فرهود أحد شيوخ العمارات من عنزة، سجنه باشا الترك بعد أن قبض عليه في سوق حلب، فلما علم به (العقيلات) أرسلوا إليه رسالة مفادها أنهم سيخرجونه من السجن في يوم معين، ويعودون به إلى بغداد، فلما وصلته الرسالة قال هذه القصيدة[1]:

يقول فرهود وهو بالحبس مكتوف ... وا ويلتي من ضيم شٍ جرى لي
يا بد ما يقفن بنا الهجن بزلوف ... يبغن هيت قبل عشرة ليالي
وحْدعش دنوا لهن كل مشحوف ... نقطع بهن شط الفرات الزلالي
واثناعش يرمى بهن حزة الشوف ... أم المشارع وأم سدر عوالي
يا ما حلى أن هفن على الشيخ معروف ... وزبيده اللي راس مبناه عالي
تلفي على القصمان ربع بهم نوف ... أولاد علي مرخصة كل غالي
سلاحهم جوز على الورك مرصوف ... دق الفرنجي مثل نجم المحالي
ملبوسهم ماهود يشرى لعمل صوف ... رجالهم بينين سواة الجمالي
زبن الغريب ليا نخاهم على الشوف ... الجيش حاضر وبالفعل يعتني لي
ما قلت هذا إلا أنا بالضيق مكتوف ... عيَّال ياتون حين السوالي
مجهودهم يدْوه ولا هم هل حسوف ... ما يصير مثل اليوم كود هم قبالي

وبالفعل تمكنوا من إخراجه من السجن، فكان يعرفها لهم.

قال أحد شعراء بريدة في عقيل وشجاعتهم:

جمع عقيلٍ ما هو خافي ... كم ذيبٍ يعسفونه

كان « (عبدالرحمن بن أحمد بن عبدالله الرواف) المعروف بـ (دحيم) مغربًا بأربع رعايا من الإبل، ويرافقه ابنه عبدالله، ومعه فايز القليش وبعض الخويا، وخمسة رعيان

(١) أ. موزل: أخلاق الرولة وعاداتهم (ترجمة وتعليق: د. محمد السديس)، ص٣٨٥.

من البادية، وعندما قطعوا أكثر من نصف المسافة بعد الحيانية، قال الرعيان الذين معه: (القروش شوية؛ أي أجرتنا قليلة)، زودنا وإلا فلن نكمل الطريق. عرف الشيخ أن لهم نية خبيثة، يريدون الغدر به وسرقة الإبل. فقال الشيخ: لماذا لم تقولوا هذا في أول الطريق؟ لكن.. ما لكم مقاعيد (بقاء) معي وأنا أبوعبدالله! فطردهم، وقال للقليش: لا، ياقفن البعارين. شدوا عليهن هجيج. وأركب ابنه الذلول، وقال له: لا تحول منها (أي: لا تنزل عنها) مهما جرى لك من تعب وغير ذلك. وركب هو الفرس، وصاح بأعلى صوته على الإبل هجيج، وشدوا المسير ثلاثة أيام لم يتوقفوا حتى وصلوا مضارب شيخ عنزة. ولما شاهد رجال عنزة غبار الإبل من شدة المسير حسبوه غزوًا، فقام شيخ عنزة واقترب، وصوب النظر فشاهد أنهم عقيل، فأخبر الجميع فوصل (دحيم) وهو معروف لديهم، فأخبر شيخ عنزة بما حصل، فأعطى شيخ عنزة (دحيم) أربعة رعيان ليرافقوه في تجارته، وقال العنزي لدحيم: علمهم (يعني الرعيان) المرجلة. أنتم معلمون للمرجلة والصبر يا عقيل».

وإليك شجاعة عقيلي من أصغر (العقيلات) وحسن تصرفه:

يقول لي (محمد بن عبدالكريم العميري): «كنت جالسًا في الجردة يومًا من الأيام وأنا صغير السن، أدور (معزب) من (العقيلات) يريد الغربية، فوجدت مطلوبي، فأرسلني بالذهاب إلى الرعيان، ومعهم رعية إبل له، وهي في طريقها إلى الأردن، وكان عمري ١٤عامًا. وقبيل ذهابي اشترى التاجر جملاً من سوق بريدة، وكان جملًا مهيلًا؛ جمل ترفع عليه الحمول الثقيلة، وكما قال المثل (جمل المحامل). ويقول صاحب الجمل: إنه (إكلة)، أي يفترس كل شيء. ولم يأخذ التاجر بكلام البائع، ثم شد المسامة (أطول من الشداد لوضع الحمول عليها وتغزالتها قصيرة) على الجمل لوضع الحمل عليه، ثم ذهبت في اتجاه الشمال، وجلست للمعشاء عند بئر الأبيّد (البطين)، وعقلت الجمل. وإذا بإبل الفرحان ترد البئر، وهناك ناقة مجسر، فهاج الجمل (يبي) يضرب الناقة، لكن ردته الحبال والرعيان. وفي الغد عندما غابت الإبل عن الأنظار، شددت الجمل وهو يضرس، ثم أقبلت على المدرج، فرأى الجمل على يمينه شمال شرق بعيدًا إبلًا، وبدأ يجنح إليها، وإذا واجهته شجرة عرفج أو رمثة برك عليها، وجعلها حطامًا. يقول: كان الجمل عليه خزام، وكنت (أتلّه) أي أسحبه، فانقطع الخزام بيدي، ثم رجع يبرك على الشجر، والجمل الآن (أصلع) أي ليس عليه حبل، ففكرت في أن أهدئه حتى أربطه، ووقف عند رمثة، وبرك يأكل منها، فبدأت أمسح بيدي عليه من الخلف، وأشيل منه (الحلم والقردان)، فهدأ الجمل، ثم ربطت شعر الذيل برجل الجمل (على العرقوب) حتى إذا قام لا يقدر

على المشي برجله، فتكون رجله مرفوعة. وقام الجمل وإذا برجله مرفوعة، فبرك، وربطت رجله الأخرى حتى أتمكن منه، ورميت الحبل على رأسه، فربطت رأسه بذيله، وأحكمت الربط، فشددت العقال بالأيدي، وضربت الجمل على رأسه حتى (رغى)، وفتلت حبلاً من شعر ذيله، وخرمت أنفه بالشبرية، ووضعت حبل الشعر في الأنف، ووضعت حبلاً من جهة اليمين، وحبلاً من جهة اليسار، وأكملت مسيري إلى الرعيان والإبل».

الأمانة:

الأمانة من أهم صفات (العقيلات) ومميزاتهم، التي تقتضيها معاملاتهم التجارية. فالأمانة هي أساس النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة، خصوصًا إذا كانت في التعامل التجاري، وهذه حال (العقيلات)، فهم يأخذون الأموال من تجار القصيم كبريدة وعنيزة وغيرهما للمضاربة، وهو ما يسمى عندهم (البضاعة)، وهي: أن يعطي التاجر للعقيلي مبلغًا من المال على أن يضارب به مع (العقيلات)، والمربح بينهما بحسب الاتفاق، والخسارة كذلك، وهذا العمل مبنيّ على أمانة العقيلي وصدقه وورعه، فتجده يكتب مصاريف الرحلة، ولا يترك شاذّةً ولا فاذّةً إلا قيّدها في دفتره حتى يصفي تجارته، ومن هذا المنطلق يعامله التاجر، فلا شهود ولا كتابة، وإنما هي الأمانة.

نموذج من دفتر حسابات العقيلي سليمان بن محمد المحيسني ومصاريفه عام ١٣٥٠هـ.

وللعقيلات تعاملات تجارية مع تجار البلدان العربية وغيرها مبنيةٌ على الأمانة والصدق، ولكي يستمروا في تجارتهم، ويكسبوا ثقة الآخرين، فلا بد أن يكونوا كذلك، وقد ضربوا أروع الأمثلة في ذلك، وقد اشتهر المثل السائر عند أهل الشام (خليك عقيلي)، فإذا اختلف اثنان في معاملة تجارية، فإن أحدهما يقول للآخر: (خليك عقيلي)، أي أنصف من نفسك مثل ما ينصف العقيلي من نفسه.

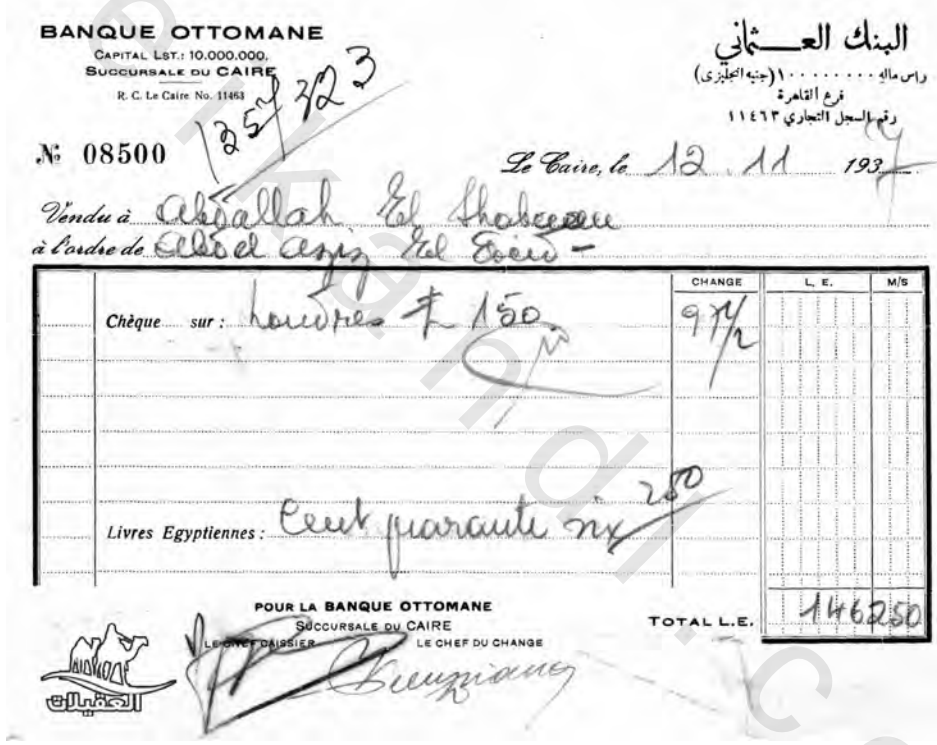
BANQUE OTTOMANE
CAPITAL LST.: 10.000.000.
SUCCURSALE DU CAIRE
R. C. Le Caire No. 11463

البنك العثماني
رأس ماله ١٠٠٠٠٠٠٠ (جنيه انجليزي)
فرع القاهرة
رقم السجل التجاري ١١٤٦٣

№ 08500

Le Caire, le 12 11 193

Vendu à Abdallah El Shabeeny
à l'ordre de Abdel aziz Bel Beir

	CHANGE	L. E.	M/S
Chèque sur : Londres £ 150	97 1/2		
Livres Egyptiennes : Cent quarante six 250			
TOTAL L.E.		146250	

POUR LA BANQUE OTTOMANE
SUCCURSALE DU CAIRE
LE CHEF CAISSIER — LE CHEF DU CHANGE

من حسابات العقيلي عبدالله بن عبدالكريم الشبعان في البنك العثماني، فرع القاهرة عام ١٩٣٧م.

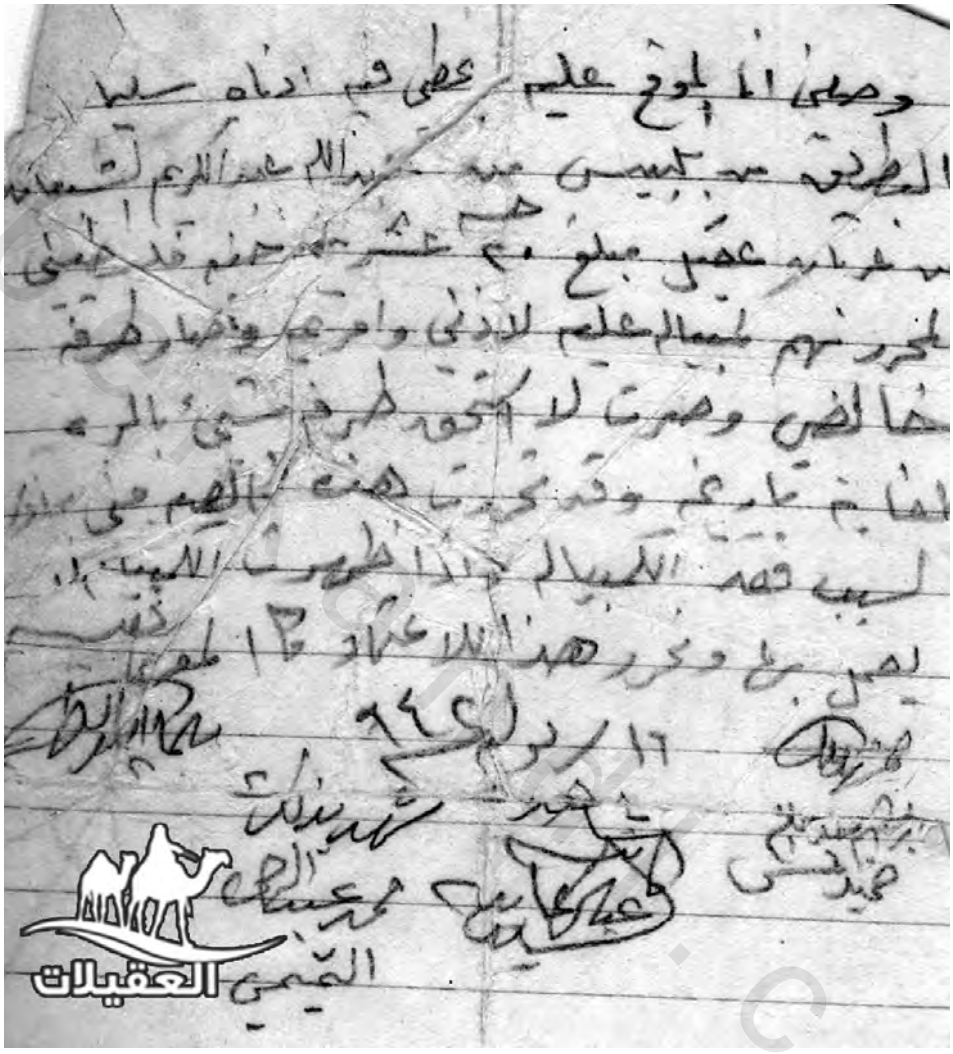

وهذا نسخها بحروف الطباعة:

وصلني أنا الموقع عليه بخطي في أدناه سليمان البطريق من بلبيس من عبدالله عبدالكريم الشبعان من عربان عقيل مبلغ (٢٠) جنيهًا؛ عشرين جنيهًا فلسطينيًّا المحرر لهم كمبيالة عليه لإذني وأمري، وإخبار طرفه خالص، وصرت لا أستحق طرفه شيئًا بالمرة لغاية تاريخه، وقد تحررت هذه المخالصة مني بذلك لسبب فقد الكمبيالة، وإذا ظهرت الكمبيالة يعمل بها. ونحرر هذا للاعتماد ١٦ يوليه ١٩٤٢م.

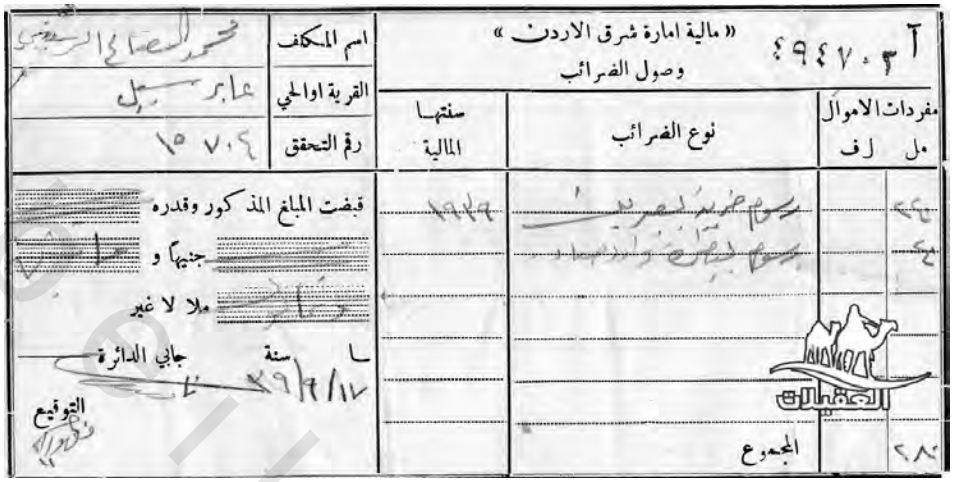
« مالية امارة شرق الاردن »
وصول الضرائب
٤٩٤٧٠٣
اسم المكلف
القرية اوالحي
رقم التحقق
سنتها المالية
نوع الضرائب
مفردات الاموال
مل ل ف
قبضت المبلغ المذكور وقدره
جنيهاً و
ملا لا غير
جابي الدائرة
سنة
التوقيع
المجموع
العقيلات

رسوم ضريبة عبور الإبل الأردن للعقيلي محمد بن صالح بن إبراهيم الرسيني عام ١٩٣٩م.

ومن المعلوم أن (العقيلات) يشترون من البدو الرحل من مختلف القبائل الإبل والخيل والغنم والأقط والسمن إما نقدًا، أو مقايضة.

وهناك ما يسمى عندهم (رفق)، أو (خويا) وهو أن يصحب قافلة (العقيلات) عدد من رجال القبيلة التي ستمر القافلة بأراضيها، على أن يعطوا أولئك الخويا مبلغًا من المال، بشرط أن يضمنوا لهم عدم الاعتداء عليهم من قبيلتهم، وهذا العمل من جميع الأطراف مبدؤه الثقة والأمانة، فلا محاكم ولا قضاة في شريعة الغاب.

وهناك أمر آخر عندهم، وهو ما يسمى (**العَدولة**)، وهي أن يعطي العقيلي للبدوي ناقة أو ناقتين أو أكثر، أو شاة أو شاتين أو أكثر، وأحيانًا يعطيه شيئًا ثمنه بخس مما يستفاد منه، كمقص أو إبرة كبيرة ونحو ذلك، على أن يتولى البدوي رعايتها، وتنسيلها مدةً غير محددةً، فمتى جاء العقيلي قسموا فيما بينهم بحسب ما اتفقوا عليه، وأما ما يتعلق بالحليب والسمن فإنه للبدوي أن يستفيد منه، ولا يحاسبه العقيلي عليه، وهذا العمل مبنيّ على الأمانة والثقة، خصوصًا عند البدوي.

وفي نظرنا جميعًا أن هذه الأمور المتقدمة مبنية على الثقة والأمانة والصدق، التي تتجسد في ضمير العقيلي.

قال الرحالة لوي جاك روسّو القنصل الفرنسي: «أمانة (العقيلات)، فلا غبار عليها في نظر الجميع، ولا مجال لإفسادهم، فما يودع عندهم فهو في مكان أمين لا خوف عليه؛ لأنهم يعتنون به، ويدافعون عن أموال الآخرين، كما لو كانت أموالهم الخاصة بالذات[1]».

يقول العقيلي محمد الأحمد الرواف: توفي أحد التجار الدمشقيين الذين كانوا يتعاملون مع (العقيلات) تجار الإبل، بينما الورثة يفتشون في دفاتره، عثروا مدونًا فيها:

بيد (علي) من أهل بريدة (٣٠٠) ليرة عثمانية استلمها يوم الجمعة من شهر رجب ١٢٧٥هـ كشريك مضارب معنا، له ثلث الربح، ولا يدفع خسارة إذا حلّت بتجارته لا سمح الله. وتحتها مدون بالحبر الأحمر: استلمنا أموالنا كاملة، وكان مكسبنا ٧٥ ليرة عثمانية أخذناها منه، وأرجعنا له رأس المال الأول ومقداره (٣٠٠) ليرة عثمانية في تجارة ثانية كشريك مضارب، له ثلث الربح، ولا يدفع خسارة، إذا حصلت بتجارته لا سمح الله.

وجد الورثة أسماء عدة مدونة في هذا الدفتر لم يذكر فيه أسماء عائلاتهم، بل ذكر البلد الذي كان ينتمي إليه هؤلاء التجار، فلقد كان التجار الدمشقيون يثقون بالتاجر العقيلي النجدي، فيسلمونه أموالهم، ولا يكتبون بينهم أوراقًا تثبت هذه التجارة، ولا يذكرون كنيته، بل يشيرون إلى اسمه الأول واسم بلدته[2].

(١) الرحالة لوي جاك روسّو: رحلة إلى الجزيرة العربية سنة ١٨٠٨م، ص٦١.

(٢) خليل الرواف: صفحات مطوية من تاريخنا العربي الحديث، ص٧١-٧٢.

obeikandl.com

وصية أحمد بن عبدالرحمن الفيروز - رحمه الله - عام ١٢٣٣هـ:

قال الشيخ محمد العبودي - حفظه الله -: «انظر إلى هذه الأمانة النادرة التي حق لنا نحن المسلمين أن نفتخر بها، فهذا الرجل الموصي؛ أحمد الفيروز، قد أقر في وصيته، وسجل ذلك فيها، وهو في بريدة بعيداً عن العراق، أن ليهودي في بغداد في ذمته ثلاثين ريالاً. مع أنه لو سكت لما استطاع اليهودي العراقي أن يستخلصها بأن يأتي إلى بريدة، ويخاصم حتى يحصل عليها إن وجد من يصغي إليه، وإذا كانت لديه إثباتات كافية.

وقد يسأل سائل عن كيفية الاهتداء إلى ذلك اليهودي؟ والجواب أنه لا بد من أن أحمد الفيروز - رحمه الله - كان قد وصف مكانه في كلام له معتاد حتى يتصل به أهله، ويستطيعوا أن يوصلوا حقه إليه، بعد أن ذكر أصله نصًّا في وصيته، إذْ ليس من المعقول أن يذكر عنوان ذلك اليهودي في الوصية[1]».

ونقول أيضًا: إن هذه الوصية كتبت عام ١٢٣٣هـ، حيث لا حكومات، ولا أمن، ولا شرطة دولية (إنتربول)، وغير ذلك، ما يجعل هذا العقيلي يعترف بحق هذا اليهودي، ويثبته ليس خوفًا من تلك الأجهزة الحكومية، وإنما الذي دفعه هو خوفه من الله، ودينه وأمانته وخلقه النبيل.

وهذا شاهد حي لهؤلاء الأفذاذ الذين يندر وجود أمثالهم في هذه الأزمان، ولنقرأ هذه القصة لصالح الغنام - رحمه الله -:

«كان ضمن مجموعة من (العقيلات) وهم في طريقهم إلى بريدة، وقد نزلوا في أرض تسمى (اللبة)، الواقعة شرق النفود الكبير، ومبيتهم يبعد عن مورد الماء مقدار (إرحلة) أي ممشى يوم، وبعد صلاة الفجر شدوا الرحال إلى المارد، ولما وصلوا مارد عذفاء، أخذ صالح الغنام ماء، وذهب إلى مجخ الشعيب (المنخفض الذي جرفه الماء)، فوجد كمرين (حزامين) مملوءين بالجنيهات، قد نسيهما أحد المارَّة، فأخذهما وشدّهما على بطنه، وذهب إلى أصحابه، ثم رحلوا من هذا المارد متجهين إلى بريدة، وكان الشيطان يوسوس له بالجحدان، واستمر على ذلك حتى بان لأصحابه أنه منشغل الذهن، فسألوه: ماذا أصابك يا صالح؟ قال: لا شيء. وفي أثناء سيرهم طوال النهار، إذا بأصحاب مطيتين مقبلين نحوهم، وينادونهم بأعلى أصواتهم: اذكروا الله يا عقيل، مَنْ منكم لقي الكمرات؟ فصاح صالح بأعلى صوت: أبشروا بهن، فسألوا صالحًا: لماذا صحت بأعلى صوتك؟ قال: لأتغلب على الشيطان. فسلم الكمرين للرجلين بعد التعريف بأوصافهما، وعدد الجنيهات الذي فيهما[2]».

ويذكر لي العقيلي (حمد الرشيد الحجيلاني) أن كبير عائلة (الهاشم) في الشام يقول لأبنائه والعاملين عنده: لا تكتبوا على العقيلي؛ لأنه إذا ذهب إلى أصحابه كتب على نفسه هذا الدين، ولا يضيع عند (العقيلات) دَين أبدًا.

(١) معجم أسر بريدة: ج ١٧، ص٥٥٩.

(٢) من ذاكرة صديقنا العزيز الراوية الشاعر فهد الوني.

وقال: إن تجار الشام والعراق ومصر، يبضعون (العقيلات) دون كتابة؛ للثقة والأمانة اللتين يتمتع بهما رجال (العقيلات)!

الصدق:

لأن (العقيلات) كلهم مسلمون ومن أهل السنة والجماعة، وأكثرهم من منطقة القصيم قلب نجد، وهي التي لم يدخلها الاستعمار، ولم تختلط بأهلها الشعوب الأخرى؛ لذلك بقوا على صفاتهم وأخلاقهم التي هي صفات المسلم العربي، ومن أهمها الصدق، فالرجل الذي يكذب، وعرف عنه الكذب، فإنه ينبذ من بينهم، فهم صادقون مع الله قبل أن يصدقوا مع الخلق. وزيادةً على طيب معدنهم، فإن عملهم يقتضي ذلك؛ لأن المصداقية والثقة من أهم الوسائل في حفظ الحقوق وأدائها، فلا حكومات ولا حقوق مدنية ولا محاكم شرعية في استحصال الحقوق خصوصًا عند الأعراب والصحراء، وإنما هو الصدق والثقة والأمانة.

ولنرَ ما قال لورنس العرب عن صدقهم، حينما كان (العقيلات) يعملون معه في معان، ومعهم من البادية، ودخل شهر رمضان، فقال لورنس: «الذي يصوم سوف أعطيه نصف القيمة، والذي لا يصوم سوف أعطيه القيمة كاملة؛ لأن الذي سوف يصوم لا يعمل جيدًا. قال (العقيلات): نحن سوف نصوم فرضنا، ونرضى بنص القيمة، وقال البادية: نحن لا نصوم، نريد الأجرة كاملة. قال لورنس: أنتم يا عقيل، صادقون مع ربكم، سوف أعطيكم الأجرة كاملة»[1].

وقال محمد كرد علي في مذكراته، وكان قد صحب (العقيلات) أربعة عشر يومًا من الشام إلى مصر: «وكان أولئك (العقيلات) مواظبين على صلواتهم، يتيممون بالرمل إذا أعوزهم الماء، ولا يسرفون فيه إذا وجد[2]».

(١) أعمدة الحكم السبعة: ص .

(٢) مذكرات كرد علي: ص .

المروءة وعزة النفس:

قال الإمام الشافعي - رحمه الله -:

وأتــركُ حبَّها مـن غـيرِ بغضٍ ... وذاك لكـثرةِ الشُّـرَكاءِ فِيـه
إذا وقـع الـذُّبـابُ على طعـامٍ ... رفعـتُ يـدِي ونفسِـي تشتهِيـه
وتجـتـنـبُ الأُســودُ ورودَ مـاءٍ ... إذا كانَ الـكلابُ ولغْـنَ فِيـه[1]

لقد اشتهر عن (العقيلات) قمة المروءة، وبعدهم عن سفاسف الأمور، فهم لم يتغربوا، ويتركوا الأهل والأوطان، ولم يخاطروا، ولم يعملوا بأشق الأعمال إلا لمروءتهم وأنفتهم، فتجد أحدهم يبيت طاويًا، ولا يسأل الناس إلحافًا، أو يأكل من صدقاتهم، أو يسرق بسبب فاقته، وقد ضربوا بذلك أروع الأمثلة وأصدقها حتى يومنا هذا، فتجد في بقيتهم - أطال الله في أعمارهم - هذه الميزة، ومن الأمثلة على ذلك:

١) قال الشيخ محمد العبودي: «كنت في عام ١٣٧٥هـ أستعد للسفر إلى مصر للمرة الأولى. وكنت أشغل وظيفة مدير المعهد العلمي ببريدة، وكان من المدرسين المصريين عندنا في المعهد أستاذ اسمه (رمضان أبوالعز)، يعرف عبدالعزيز بن الشيخ إبراهيم الجاسر - رحمه الله - لأن له صلة بعقيل. فالمصري (رمضان أبوالعز) من المعجبين بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله - وهو في الوقت نفسه من هواة الخيل، وعُقَيْل في مصر وهم تجار الإبل فيها أغلبهم من أهل القصيم يتاجرون في الخيل، وكان (رمضان) قد أخبرني أن عبدالعزيز بن الشيخ إبراهيم الجاسر يقيم في مصر، وأنه صديقه، وأنه سمعه يردد هذا البيت كثيرًا:

نُرقِّعُ دنيانا بتَمزِيقِ دِينِنا ... فَلا دِينُنا يبقَى ولا ما نُرَقِّعُ

فجرى ذكر ذلك عند الوجيه (جاسر العبدالكريم الجاسر)، وهو من الأثرياء الذين لهم ميل إلى طلب العلم، ومقيم في الرياض.

وقد علم أنني سأسافر إلى مصر، فقابلني، وقال: أرجوك أن تعمل على إرسال ابن عمي عبدالعزيز بن الشيخ إبراهيم، وأي مبلغ يريده من المال تعطيه إياه، وسوف أعطيك

(١) ديوان الشافعي: ١٥٠، ووردت في المستطرف: ١٦٣/١ دون نسبة.

ما يحتاج إليه الآن، أو إذ أعطيته ما أعطيته، حتى ولو قال مثلاً: إن عليه دينًا، فتقضيه عنه قرضًا علينا!

فقلت له: إنني سأقوم بذلك. أما المال فإنني سأدفع ما يحتاج إليه، وآخذه منك.

فلما وصلت إلى مصر، أحضره لي الأستاذ (رمضان أبوالعز) في الفندق الذي كنت أقيم فيه في ذلك الوقت، وهو فندق رضوان في حي الأزهر، فرأيت الرجل ذا مظهر يدل على الفقر والمسكنة. وهذا ظاهر السبب؛ لأنه ليست لديه ثروة في مصر، ورأيته رجلًا هادئًا عاقلاً رزينًا، لا يتكلم إلا إذا كانت توجد حاجة للكلام. فأخبرته بما قال ابن عمه (جاسر العبدالكريم) وإخوته، وأنني لذلك مستعد لأن أدفع له تذكرة السفر، وأعطيه نفقة للسفر أيضًا؛ لأنه لا ينبغي لمثله أن يبقى في مصر دون عمل.

وقلت له: إن دكاكين الجاسر في الجهة الجنوبية من سوق بريدة الرئيس قد أصبحت تغلّ غلة كبيرة، وهي أوقاف مخصصة فيما أعرف لأعمال البر، ومن ذلك نفع المحتاجين من الجاسر!

فسكت، ولم يجب، ولم أتركه حتى أخذت معه موعدًا ليأتيني بعد يومين، ولكنه لم يجب لما طلبته منه. وأخيرًا ألححت عليه، وقلت له: إنني سآتي إلى المكان الذي تقيم فيه إذا لم تستجب لما طلبته منك.

وعندئذ أبدى إليَّ ما يكنّه ضميره، قال: يا أخ محمد، أنت تعرف أننا كنا نذهب من بلادنا إلى مصر عزيزين؛ لأنه يكون معنا الماشية الكثيرة من الإبل والخيل والنقود، ثم نعود إلى بريدة عزيزين أيضًا، فنعطي المحتاج، ونصل القريب.

وأما الآن إذا عدت إلى بريدة، فإن آل جاسر سوف يعطفون عليَّ، وربما يتصدقون، وأنا لا تتحمل نفسي ذلك، بل تتطلع إلى أن أعطي الآخرين، لا أن آخذ منهم! لذلك سوف أبقى في مصر حتى يحكم الله لي بما شاء، وهو خير الحاكمين. وإنني أشكرك، وأشكر ابن عمي جاسر العبدالكريم على ما قدمتموه. هذا ولم يمضِ بعد هذا الكلام إلا نحو سنة أو سنتين حتى توفي عبدالعزيز بن الشيخ إبراهيم بن جاسر في مصر غريبًا وحيدًا[1]».

(١) معجم أسر بريدة: ج٣، ص٩٩- ١٠٠.

٢) «كان (صالح بن سليمان الهلال) - رحمه الله - في مصر له ثلاث سنوات متغربًا عن أهله وبلده، يتاجر في أسواق الإبل في البلاد العربية، وكان يعاني ماء في العينين، لا يستطيع النظر، يقول: (لا أرى سنام البعير إلا إذا برك أشوف (أرى) سنامه)، فاشترى إبلاً من أسواق مصر، واتفق مع الرعيان ليتوجهوا بها لغور الأردن ليشتي بها (لتسمن بالربيع)، بعد ذلك يسوقها في أسواق البلاد العربية، تقدمت الرعية والرعيان، وذُكر له طبيب عيون في الأردن اسمه (الغوري)، فذهب إليه، فكشف عليه، وأجرى عملية لعين واحدة، وبعد أسبوع سيجري عملية للعين الثانية، فقال للطبيب: سوف أرجع لك مرة أخرى. وعند وصوله للرعيان بالغور، وإذا الإبل سرقها قطاع طرق من قبيلة الكعابنة، فجلس أيامًا يبحث عنها، ولكنه لم يجد لها أثرًا، فقال لنفسه: كيف أرجع وأنا ليس بيدي شيء؟ ماذا أقول لأهلي في بريدة؟ سرقت؟

فبقي ولم يرجع إلى بلده، وجلس ثلاث سنوات أخرى في مصر بتجارة الإبل، حتى جمع المال مرة أخرى، ثم عاد إلى بريدة[1]».

٣) قال الشيخ محمد العبودي - حفظه الله -: «ناصر الغليقة لم يحصل على ما كان يريد من النقود التي يشتري بها في العادة إبلاً يذهب بها مع أصدقائه من (العقيلات) تجار المواشي إلى بلاد الشام ومصر، ولم يرد أن يذهب إلى بريدة، فيشهد سفر (العقيلات) من دون أن يكون معهم، فجلس في بلدة (عيون الجواء).

ولما عَلم صديقه العقيلي الشاعر (علي الحميدة) بخبره، قال للعقيلات: لقد بلغنا أن الغليقة قد أعسر، ولسنا رجالًا إذا تركناه وحده، فلا بد أن نساعده، ونمد له يد العون، فقاموا كما هي شيمهم بجمع المال له كلٌّ بحسب مقدرته، واشتروا عشرة من الإبل، ووضعوا عليها وسم الغليقة، فذهب إليه علي الحميدة، فاستقبله الغليقة بقوله:

معك الخبر يا علي من قلّ ماله ... يسوج عن داره بوده وغاليه

فأجابه الحميدة بقوله:

يا صاحبي ما جيت عاني وابا أسمع ... كلام عذل و(العقيلات) ماشين

لك عزوة يا صاحِ من دون مطمع ... تقول وتفعل يا خوي دون تثمين

(١) من أرشيف عبدالعزيز بن صالح الهلال.

فرد الغليقة:

أولاد علي كاسبين الشكاله ... كم واحد ردوه عن درب عانيه
بهم على كل القبايل نفاله ... إلى اعتزوا والضد كثرت عزاويه

فتعانق الاثنان.

قالوا: وفعلاً رجع الغليقة، وواصل تجارته ورحلاته مع عقيل[1]».

الإيثار:

الإيثار على النفس أمر اشتهر به العرب منذ القدم، فهذا عنترة بن شداد الجاهلي يقول في معلقته مخاطبًا حبيبته (عبلة):

يخبركِ مَنْ شهدَ الوقيعةَ أنني ... أغشى الوغى وأُعِفُّ عند المغنمِ

فلماجاء الإسلام أيّد هذه الخصلة الكريمة، وحث عليها كما في قوله تعالى في الثناء على الأنصار رضي الله عنهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر:٩].

ولأن (العقيلات) من أحفاد أولئك العرب، وعاشوا في تلك المناطق، فإن تلك الأخلاق متأصلة فيهم ومنها الإيثار، خصوصًا أن مهنتهم تتطلب ذلك، فهم في أمسّ الحاجة إليها، ومن صور ذلك ما يلي:

١) عام ١٣٢٨هـ أعطى أحد التجار في دمشق اثنين من (العقيلات) نقودًا لشراء الإبل والتجارة فيها، وكانت النقود ذهبًا، وهي موضوعة في كمرين (مفرده كمر، وهو حزام من القماش الأحمر)، وفي كل كمر ألف جنيه ذهبًا.

خرج الاثنان من دمشق على راحلتين قاصدين الجزيرة شمال الشام لشراء الإبل. وفي الطريق نزلا عن الراحلتين للراحة، ووضع كلٌّ منهما الأمتعة عن راحلته، وحزامه فوق المتاع، وذهب واحد منهما لجمع الحطب وتجهيز الغداء، والثاني أخذ الراحلتين إلى المرعى، وقيّدهما.

(١) معجم أسر بريدة: ج١٧، ص١٤٥.

فلما عاد الأول، وقد أحضر بعض الحطب فوجئ بأن (نسرًا كبيرًا) قد انقض على متاع صاحبه، وأخذ الحزام بين مخلبيه ظانًّا أنه فريسة، وطار بعيدًا، رأى هذا المنظر بعينيه، فماذا يقول لصاحبه؟! لا شك أنه لن يصدق هذه الرواية.

وبينما هو شارد في أفكاره طرأت له فكرة، فجرى مسرعًا، وأخذ حزامه من متاعه، ووضعه على متاع صاحبه، فقد وجد أن هذا العمل هو الحل الوحيد. ثم أوقد النار، وبدأ في تجهيز الغداء، وكأن شيئًا لم يحدث. وعاد الثاني بعد أن اطمأن على الراحلتين، وجلسا يتسامران، ثم أكلا وشربا. ثم قام الأول بإحضار الراحلتين بينما صاحبه يسأله عن سر هذا التعجل، فبادره بقوله: إني استخرت الله في السفر، وسوف أعود، فحاول صاحبه أن يثنيه عن عزمه، لكن الرجل صمم، وجهز راحلته، وودعه عائدًا من حيث أتى، وشرد بأفكاره، ماذا يقول للتاجر صاحب (البضاعة)؟ وهل سيصدقه في روايته؟ وعدل عن فكرة السفر إلى دمشق، فإن سمعته ستكون عرضة للقيل والقال، فذهب إلى عمان ليبحث عن وسيلة أخرى لطلب الرزق والوفاء بالتزاماته.

أما الآخر فقد بقي في مكانه مذهولاً دَهِشًا من تصرفات صاحبه الذي جهز راحلته، وبعصبية تناول الحزام، وربطه حول وسطه بقوة، ولم يلحظ أن الحزام ضيق؛ لأن صاحبه كان أنحل منه عودًا، لكنه لم يعر لذلك انتباهًا، فركب راحلته مواصلاً رحلته، وعلى بُعد خطوات من مقامهما، رأى شيئًا ما لفت نظره، فاتجه إليه ليجد حزامًا أحمر على إحدى الأشجار، فتناوله بعصاه وهو على ظهر الراحلة، وتفحصه جيدًا، ولفه حول وسطه، وإذا هو مقاسه نفسه الذي لبسه أول مرة، وتعجب من الأمر، فأناخ الراحلة ليتفقد ما بداخله، وإذا به يجد المبلغ نفسه!

بدأت الوساوس والأفكار تزدحم في رأسه، ما قصة هذا الحزام؟ وما سر وجوده بعيدًا وعلى هذه الشجرة؟ وما سر رحيل صاحبه المفاجئ، الذي لم يأتِ بشيء مقنع يبرر به هذا التصرف؟ لا بد أن هناك سرًّا يجهله، هل يعود للبحث عن صاحبه، أم يواصل رحلته؟!

عاد ليجرب ربط الحزام الذي وجده في متاعه، فأحس أنه ضيق عليه، وجرب الثاني، فوجده مناسبًا له. إذن، فهذا الحزام يخص صاحبه، وحزم أمره على مواصلة السفر وإنجاز مهمته، ووضع الحزام الغريب في (خرجه)، ووصل إلى الجزيرة، وبدأ يشتري الإبل، وكلما

اشترى عشرة من الإبل وضع (وسمه) على خمس (ووسم) صاحبه على الخمسة الأخرى، واشترى رعيتين من الإبل: واحدة تخصه، والثانية لصاحبه، وجهزها بالرعيان والملاحيق، وعاد إلى سوريا، وفي دمشق بحث عن صاحبه فلم يجده، ولم يستطع أن يبوح لأحد بهذا السر. لقد سافر الاثنان معًا، وخشي أن يُتهم، ولكنه استمر على وضعه حتى يتبين خبر صاحبه.

وصرف بعض الإبل في دمشق، وسافر بالباقي إلى فلسطين، وكل من سأله عنه يقول: إنه سبقني إلى فلسطين. وفي سوق اللد أدخل الإبل مع رعيانها إلى أحد (الأحواش)، وذهب إلى بيت صالح الفالح، وهو من وكلاء (العقيلات) في اللد، ودخل البيت ليجد صاحبه أمامه يرتدي ملابس رثة، فأخذه من يده، وفي أحد المقاهي سأله عن سر عودته المفاجئة؟! وحاول هذا التملص من الإجابة، لكن الرجل ألح عليه بأن يقول الصدق، فسرد عليه القصة، وما حدث عندما رأى النسر ينقض على الحزام، وكيف تصرف، وقال له: قد لا تصدق هذه الرواية، لكنها هي الحقيقة!

وطيب الرجل خاطره، وأفهمه بأنه عثر على حزامه، وأنه اشترى بما يحويه من نقود رعية من الإبل صرف بعضها، ولا زال بعضها مع إبله في السوق، وأخذه إلى أحد المحالّ، واشترى له ملابس تليق بشريكه الذي آثره على نفسه، وعادا إلى سوق الإبل ليرتب مكانًا له ولصاحبه لبيع الإبل، وهكذا أعاد الحق إلى صاحبه، وظلت هذه الرواية حديث (العقيلات) يقصونها على أبنائهم تذكيرًا بالوفاء والصدق والإيثار[1].

٢) قال الشيخ محمد العبودي - حفظه الله -: «من مكارم محمد بن حماد الحماد أنه في سنة الجوع عام ١٣٢٧هـ أو ما بعدها، بقليل ذهب إلى الكويت في رفقة له، ومعهم إبلهم، وقد أخذوا معهم زادهم للطريق، وفي ذلك العصر لا يأخذ المسافرون أكثر مما يكفيهم، فلما ساروا من بريدة، صحبهم ثلاثون من الجياع الذين يريدون أن يذهبوا إلى الكويت والعراق، وقد اضطرهم الجوع إلى ذلك.

ومعلوم لهم ولغيرهم في تلك العصور أن هؤلاء يحتاجون إلى طعام وماء، وليس مع أحد من الثلاثين الذين تبعوهم طعام ولا راحِلة.

(١) إبراهيم المسلم: العقيلات، ص٢٤٣.

أما الراحلة فإنهم يقولون: إننا سنذهب معكم ماشين، ولا نحتاج إلى ركوب، ولكننا نحتاج إلى رفقة؛ لئلا نضل أو نهلك عطشًا، أو نموت جوعًا، وقد تشاور (محمد الحماد) مع الذين معه بشأنهم، وكان ذلك بعدما فارقوا بريدة والمشاة يتبعونهم، فقال لهم: سنذهب إلى الزلفي أولاً عسى أن يتخلف منهم أحد، أو نستطيع أن نحصل على المزيد من التمر.

قالوا: ولم يرضَ أحد من المشاة أن يبقى في الزلفي، وصمموا على أن يصحبوا ابن حماد ورفقاءه، فقال ابن حماد لرفاقائه: سنذهب وهم معنا، ونأكل بدلًا من الوجبتين في اليوم وجبة واحدة، والثانية نعطيهم إياها. فقالوا: إن طعامنا لا يكفينا نحن وإياهم، حتى وإن اقتصرنا على وجبة واحدة في اليوم! فقال: إذا لم يكفِ الطعام ذبحت لكم من بعاريني تأكلون منها حتى نصل الكويت.

وبالفعل سافروا، ومعهم أولئك المتعلقون بهم، ووصلوا إلى الكويت سالمين، وعدت هذه من مكارم محمد الحماد التي تبادلها الناس[1]».

الثقة بالنفس والاعتماد عليها:

الثقة بالنفس من أهم عوامل نجاح الإنسان في أمور حياته، وسر نجاحه في تعامله، خصوصًا عند (العقيلات)، ويتبين ذلك لمن يقرأ عنهم، أو يسمع قصصهم الشبيهة بالخيال، كما هو موجود في هذا الكتاب وغيره، وتكمن هذه الثقة في نفوسهم بناءً على ثقتهم في الله، وتوكلهم عليه، والاستعانة به، وشعارهم في ذلك كما في الحديث القدسي: «أنا عند حسن ظن عبدي بي».

كيف لا وهم من بلدٍ اشتهر بصفاء التوحيد، ونقائه مما يشوبه من الخرافات والخزعبلات، فلا عجز عندهم ولا تواكل، بل هو التوكل على الله، والاستعانة به وحده، مع بذل الأسباب المشروعة. ومما يوضح ذلك أنك تجد أحدهم يقطع المسافات في الصحاري والقفار، التي لا تخلو من قطاع الطرق والسباع، لا يخشى إلا الله تعالى. قال أحد الشعراء[2] يصور حالهم:

---

(١) معجم أسر بريدة: ج٤، ص٤٠٦.

(٢) هو الشاعر: إبراهيم بن سليمان اللاحم - حفظه الله -.

openkanary.com

يـوم وقـت اعقيل والدنيا ذليله — والـبراري للوحـوش الضاريـات
روحــوا بـركابهم كلـه ثقيله — ســـايقينه للقصـــيم محملات
تـابعين أميرهـم هـو والدليـله — كالأسـود و لا تخـاف النايبـات
كاسـبين للـتجـاره والـنفيـله — والسمـات الطيبه هي والصفات

وتجـد أحدهـم يتغرب من بلده، لا يملك شيئًا مـن المال، حافي القدمين، ثيابه ممزقة، واثقًا بربـه، ثـم بنفسه، فيرجع بعد سنـوات تصل عقودًا عـدة، رافعًا رأسـه، حاملاً الأموال والأرزاق إلى أهله الذين هم في انتظاره، وفي أشد الشوق إليه.

ومما يبين زرع الثقة بالنفس وتعويد الناشئة على ذلك هذه الوثيقة التي بين الأب وأبنائه:

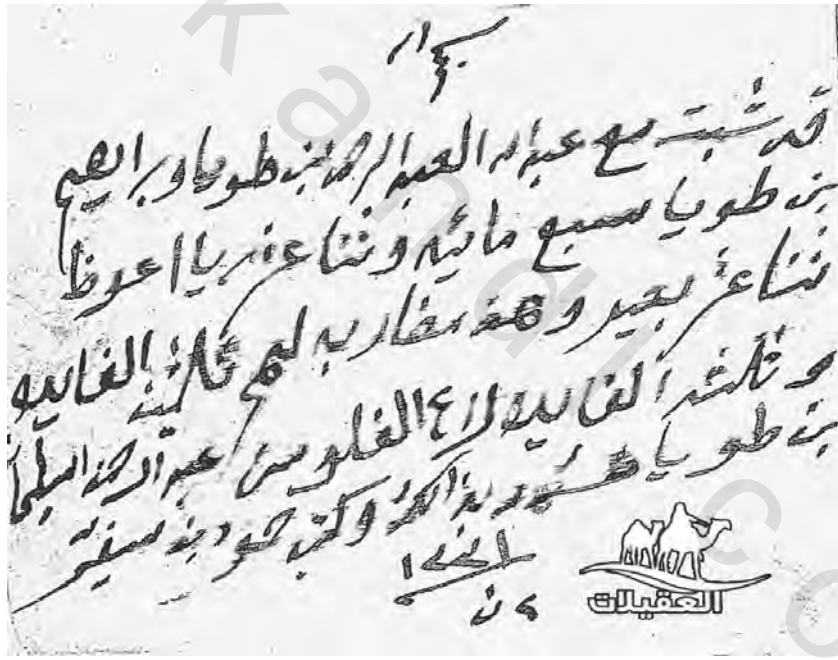

وهذا نصها بحروف الطباعة:

بسم الله

قد ثبت مع عبدالله العبدالرحمن بن طويان، وإبراهيم بن طويان سبع مائيه (سبع مئة) واثنا عشر ريالاً عوظ (عوض) ثنا عشر بعير، وهن مضاربه، لهم ثلثين الفايدة وثلثه الفايدة لراع الفلوس عبدالرحمن سليمان بن طويان شهد بذلك، وكتب حمود بن سفيّر ٢ن/١٣٣١.

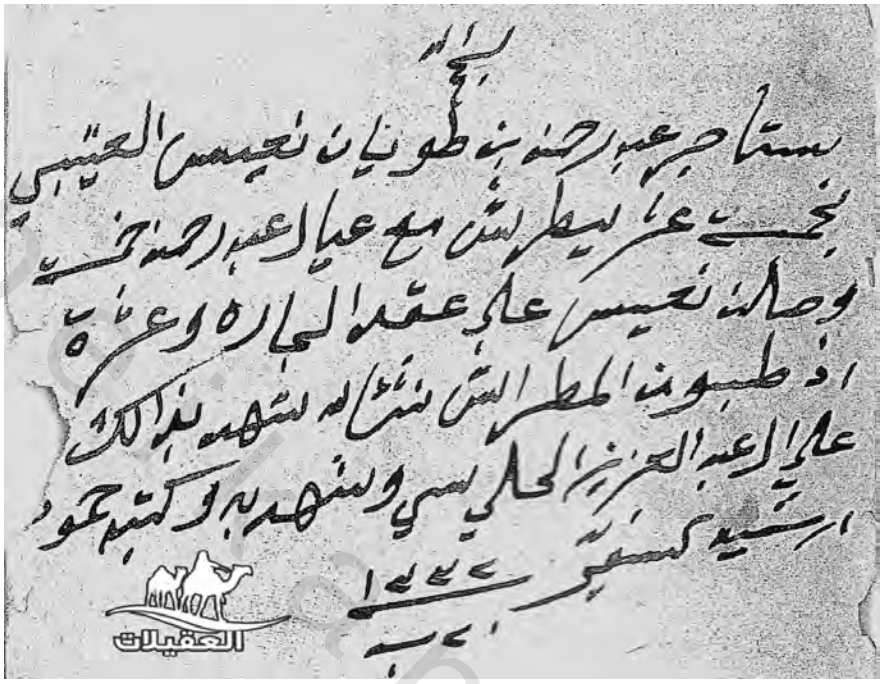

بسم الله

ستاجر عبدالرحمن بن طويان نعيس العتيبي بخمسة عشر، يطرش مع عيال عبدالرحمن، خمسة وصلن نعيس على عقد الجاره، وعشرة إذا طبوا من المطراش إن شاء لله. شهد بذلك علي العبدالعزيز الحليسي، وشهد به وكتبه حمود الرشيد ١٣٣٢هـ

وفي هاتين الوثيقتين دروس تربوية للأبناء الذين هم في مقتبل أعمارهم، منها:

١. الاعتماد على النفس.

٢. زرع الثقة.

٣. الجدية والصبر وتحمل المشاق.

٤. التعود على البيع والشراء وغير ذلك.

وكثيرًا ما نرى، ونقرأ، ونسمع عن الدورات التدريبية التي تقدم بمبالغ مالية، بطريقة مرتبة ومنظمة، وبقاعات خصصت لذلك، والتي تُعنى بهذه الأشياء.

فنقول: إنهم قد سبقوا بذلك بعشرات السنين بل بالمئات، إلا أن الطريقة تختلف، ولا شك أن التجربة العملية، أفضل من النظريات بكثير[1].

الصبر والغربة:

لقد ضرب (العقيلات) أروع الأمثلة في الصبر على المشاق والغربة، والكدح في سبيل تحصيل لقمة العيش. ولقد بهروا من رافقهم من رحالة، وغيرهم، ومن قرأ عنهم. قال الأستاذ (فهد المارك) - رحمه الله -: «التغرب عن البلاد، واقتحام الشدائد بالنسبة لأهل القصيم يعتبر شيئًا طبيعيًّا، فهم أصبر أهل الجزيرة العربية على الغربة، وأطولهم باعًا في هذا الشأن، فغياب الرجل منهم عشرة أيام عن أهله وغيابه عشرين سنة يُعدّ شيئًا طبيعيًّا، ما دام في سبيل الكدح وطلب الرزق عن طرق شرعية، وقد اتصفوا بصفات حميدة، مثل الأمانة والصدق في المعاملة والوقوف مع المحتاج بينهم، وأغلب أثريائهم عصاميون اكتسبوا الثروة ونموها بفضل الله ثم اغترابهم عن بلادهم، وهم (العقيلات). يقول الشافعي رحمه الله تعالى:

تغرَّبْ عن الأوطانِ في طلبِ العُلى ... وسافرْ ففي الأسفارِ خمسُ فوائدِ
تفرج همٍّ، واكتسابُ معيشةٍ ... وعلمٌ، وآدابٌ، وصحبةُ ماجدِ
فإنْ قيلَ: في الأسفارِ ضيقٌ وشدةٌ ... وقطعُ الفيافي واقتحامُ الشدائدِ
فموتُ الفتى خيرٌ له من مُقامِه ... بدارِ هوانٍ، بينَ واشٍ وحاسدِ[2]

أقام الشيخ محمد بن راشد الحميد ثلاثة أشهر في بريدة، وعلى الرغم من أنه منكسر (أي مفلس من المال) بعد التجارة، لم يشعر أحد بذلك، فلا يجلس إلا في مقدمة المجالس، ولا يتقدمه أحد، وظل محتفظًا بمقامه، ودائمًا يردد (الحلال وبرة. تحتْ وتنبت من جديد)!! وبرة: واحدة الوبر (صوف الإبل).

(١) من أرشيف الفريق/ محمد بن عبدالله الطويان عند زيارتي له في منزله بالرياض عام ١٤٣٢هـ.
(٢) من شيم العرب: ص١٨٣.

«سافر العقيلي (صالح)، وأطال الغياب على والدته، وهي تتوجد عليه وعلى رؤيته لعله يأتي تبرد حرارة قلبها! وكل يوم تسأل عن عقيل: هل جاء منهم أحد؟ وهل الذي جاء منهم رأى ابنها؟ فلما طالت المدة على أم صالح قالت هذه الأبيات:

تشوفي يالعين ما جوا عقيلات ... ودي أشوف أخبارها المقبليني
يا طارش من فوق حيلٍ معفات ... أوقف أبوصيك للطارشيني
لا شفت صالح بالديار البعيدات ... سلم عليه وقل له يجيني
قل له ترى أمك ما تهنت بلذات ... ولا تنام الليل وقلبه حزيني
هذي ثلاث أعوام ما ذقت راحات ... دائم هواجيسي بشوفة جنيني
قل له: يجي ما ريد زود الجنيهات ... ودي بشوفه قبل يومي يجيني

وبعد أربع سنوات من الغربة مشوا من الشام إلى نجد، وفي أثناء الطريق اعترضهم قطاع الطرق، وأصيب صالح في رجله، وجلس عند رجل من البادية يدعى (أبوماجد) يعالجه حتى شفي، وقال قصيدة نورد منها:

قال الذي دمعه على الخد سكاب ... من رجله اللي ساقها كسرتيني
سباع تحوفني وهي ترعب ارعاب ... أيقنت بالموت الحمر يقتفيني
الله رحمني يوم قلوا الأصحاب ... لا حولي ديار أحد يعتنيني
سخر لي الشغموم قرب لي اركاب ... شالن وحطن فوق حمار متيني
ساعة وصلنا البيت قرب لي أسباب ... جاب الجبابر واحكمه باليميني
لعل يمنى حافت الكسر برتاب ... ما تحرم الجنة مع المسلميني
تسعين ليلة داخل البيت برحاب ... ما كولي من الغزلان عفرا سميني
سوى فعالٍ ما تسويه الأقراب ... فعاله معي ما هقوة له وزيني

وقال يخاطب أمه:

وخلاف ذا يا راكب فوق نجاب ... حر على المطلوب طلق اليميني
اليا مشى يصير بالدرب نهاب ... يطوي بعيد الخد في ليلتيني
حمله سلام من ضميري وترحاب ... للوالدة اللي قليبه له حنينيي
قل له صويلح بشية الله إلى طاب ... إنه يجي لك على ما تبيني
هذا المقدر يا أم صالح والأسباب ... تجي لك الدنيا ولازم تهيني
صلاة ربي عد ما جا وما غاب ... على نبي فاز بالقبلتيني[1]

الحذر:

الحذر من متطلبات الإنسان، وخاصة من يعبرون الصحاري والقفار. ليس الحذر من الوحوش المفترسة بقدر الحذر من الإنسان ذي النفس المتوحشة، وتكون من البوادي قطاع الطرق، وما يسمونه بالغزوات.

يقول الرحالة هنري ليارد: «إن (العقيلات) يهتمون بمرافقهم، ويدافعون عنه في رحلاتهم، ويعاملونه بلطف».

وقال: «إنه اصطحب اثنين من رجال (العقيلات)... في الليل كان مرافقاي حذرين جدًا، فكل شجرة يأخذان حذرهما منها، أي من الذي وراءها، كانا يسترقان السمع حتى يبدو الحفيف لهما وكأنه حوافر الخيل، ولم يكن ذلك الحذر وليد خوف، وحين أدركت كل هذا الحذر نمت آمنًا[2]».

قال العقيلي (سليمان بن عبدالعزيز الطويان): إنه لما سافر مع عقيل للغربية قال لهم كبيرهم: اجعلوا الشر رأس مالكم. فكل شيء متوقع والسلامة مكسب.

كلمة جميلة تدل على حذر عقيل، وعدم الإهمال في جانب الأمن، وأخذوا الحذر حتى يأمنوا على أنفسهم وأموالهم، فلا أمن ولا طمأنينة في الصحراء الموحشة.

(١) معجم أسر بريدة: ج ٦، ص ١٧٨.
(٢) نجديون وراء الحدود: ص١٨٦.

obeikandl.com

التضحية والوقوف مع إخوانهم في المحن:

إن هذه الخصال لا تتبين إلا في المواقف، وإلا فكلٌّ يدعيها، ففي المواقف يتبين الصادق من الكاذب، والكريم من البخيل، ولقد ضرب (العقيلات) أروع الأمثلة في ذلك، خصوصًا في أوقات النكبات والأزمات والمحن، ومن ذلك:

١) ما قام به (محمد العبدالرحمن الشريدة) وإخوانه ببريدة، وذلك أنه بذل أمواله في سبيل إنقاذ أهل بلده، عندما حدثت على (نجد) المجاعة المشهورة (سنة الجوع ١٣٢٧هـ). عامها استنفد أهالي بريدة مخزونهم الموجود من التمور وسائر الطعام في تلك السنة، حيث هلك كثير من الناس، وكان كثير من الناس وقتها ينتظرون عند مداخل بريدة القادمين إليها، لعله أن ينالهم شيء مما معهم من الطعام، فكثر النحيب في البلد، وعظم الكرب، واشتد البلاء على الناس، فاضطروا إلى أكل الميتة والحمير والجلود، وغيرها.

فكان محمد يمتلك مستودعًا كبيرًا للتمور في صوبة (جمعها صوب، وهي مخزن التمر الكبير، ويتسع للأطنان). وتعاون محمد ومنصور على توزيع التمر، وكان أحد التجار الكبار قال لمحمد بن شريدة: هذا وقت مناسبٌ لبيع التمر، وهذه فرصة لتحقيق الربح الكبير، فلم يسمع منه محمد بن شريدة، وإنما جمع الرجال الذين يلازمونه، ويعتمد عليهم، وكان عددهم قرابة الأربعين من أبناء بريدة، وجعلهم يعصرون التمر بالماء لكي يضعوه في أفواه المنطرحين على الأرض من الجوع، وكان كثير من الفقراء يقفون على باب ابن شريدة، فاصطفوا جموعًا كثيرة من رجال ونساء وأطفال، فكانوا يعطونَ كل شخص فدرة[1] من التمر حتى شهد لهم الصغير قبل الكبير، وكسبوا الأجر والدعاء، فقُدر ما وزعوا قُرابة (خمسة آلاف كيلو من التمر). قال (عبد الرحمن بن يحيى الشريدة) لأبنائه: محمد ومنصور بكم بِعْتم التمر؟ فقال له ابنه محمد: يا أبي، بعنا التمر على الله. فقال: نعم البيعة، ربحت البيعة.

فقال الشاعر علي العلوان - رحمه الله - هذه القصيدة، وهو ممن عاصر ذلك الحدث، حيث كان جارًا لهم، وشاهد بأم عينه كيف كان الناس يتوافدون على بيت الشريدة، ويرجعون بصحونهم مليئة بالتمر:

---

(١) وهي مجموعة من التمر بقدر كف اليد.

obeikandl.com

قال الذي ما قال زود ولا زور ... وقول بلا فعل هله يقمحون
أنا شهود محمد هو ومنصور ... بدفع البلاء كل الملأ يشهدون
وأنا قصير محمد هو ومنصور ... جيرانهم بصحونهم يرثعون
صغار وكبار وزود هل الدور ... اللي بهن لحقوقهم يرسلون
لا نوخوا ما قالوا الباب مكسور ... الضيف ضيف الله ولا يزعلون
حران ذبح الضأن وجنوب وظهور ... وزاد يكوّم في كبار الصحون
إلا وسهلين وجزلين وظفور ... ودرب المراجل يضربونه بهون
من طلعة النجمة إلى شقة النور ... من مالهم لعمالهم يجمعون
يا ما تلافى من صحيح ومصفور ... وعجز وشيبان سوات الشنون
لا قلت خفوا جا مع السوق طابور ... ناس تلاقي من بعيد يجون
أجواد لو عليه خلاخيل وخصور ... عطيت خفا ما نيظرت بالعيون
الله ذكر من صغّر النفس مأجور ... وأسعدهم بإيمانهم ينثرون
باعوا على الله ماخذوا الحكي والشور ... ياالله عسى في بيعهم يربحون
اللي يبي الجنة وينزل مع الحور ... يفطن لعيلات هله يستحون
أنا أطلب الله كل ما أقعد وأثور ... محمد ومنصور عسى يسلمون
وفهد وأبوه بنية الخير مذكور ... المال دون وجيههم يرخصون
ويحي بغيباته للأمصار مشهور ... طيبه مع اللي للنضا يتبعون
بالبر والبلدان وبديرة الغور ... اللي هل العيرات له ياردون
وحمود وسليمان لا ركبوا الكور ... مروسين للفرج يقطعون
إبراهيم وصالح ما بهم حكي وقصور ... وعلي وتال الغوش مهب دون
هذا الجهد وإن كان أنا جيت بقصور ... العذر ياجيراننا فعذرون
صلاة ربي عدّ موجٍ بالبحور ... على النبي والصحب له يتبعون[1]

(١) معجم أسر بريدة: ج١١، ص ١٣٧.

وقال أحد رجال بريدة من قصيدة له:

مِن مثل محمّدْ بالأزمان العسيره خمسين ليلة واقـفٍ يـبذل الـزاد
من مثل محمّدْ والليالي الخطيره يـشُـبّ نـارٍ يـدهـلـهْ كـلّ ورّادْ
محمّدْ نظيف القلب صافي السريره راع الكرم والجود هو فخر الأجواد[1]

٢) قال الدكتور نواف الصالح الحليسي عن أبيه صالح: «إنه مرت عليه أزمة مادية وهو في مصر، فعرف (العقيلات) ذلك، واجتمعوا عند الشيخ فوزان السابق، ومنهم عبدالعزيز بن عبدالرحمن الحجيلان، ومحمد بن إبراهيم أبوبطين، ومحمد الجلاجل، وصالح بن محمدالوهيبي، والبراك وغيرهم، وتناقشوا حول أزمة الشيخ صالح، فذكروا له شهامته وتقديره للعقيلات ومساعدته لهم، ووقوفه معهم، فاتفقوا على أن يقرضوه، فتم ذلك، وبفضل الله وتوفيقه تجارته ربحت الأضعاف، ثم رد المبلغ بعد ثلاثة أشهر تقريبًا[2]».

٣) «كان محمد بن عبدالعزيز السلامة مع صاحبه محمد بن صالح السديري (راعي خب العوشز)، فمرض السديري في الأردن، وجلس السلامة يداويه حتى شفي، ثم أكملا طريقهما للتجارة، وبعد مرور السنين تقدم الرجلان في العمر، وأصيب السديري بجلطة في الرأس، وصار عنده نسيان، ثم زاره السلامة، وقال له: هل تعرفني؟ قال السديري: أعرفك! أنت صديق عمري لو يحط (يوضع) علَيَّ طولي رمل ما نسيت خوتك في الشدايد[3]».

٤) قال الشيخ محمد العبودي - حفظه الله -: «حدث مرة أن (فلان) الماضي من أهل بريدة حصل عليه أنه صودرت إبله، فأعطاه العقيلي (محمد بن عبدالله بن سليمان العريض) عشرين بعيرًا من بين من أعطوه، فقال له إبراهيم بن يحيى:

(١) معجم أسر بريدة: ج١١، ص١٣٧.
(٢) نواف الحليسي: عصر العقيلات، ص١٢٣. بتصرف.
(٣) حدثني بها مشكورًا يحيى السديري عن والده صاحب القصة.

كيف أعطيته عشرين بعيرًا؟ فأقسم بالله إنه أعطاه هذه الإبل يرجو ما عند الله، وطلبًا للثواب من الله[1]».

٥) «قدم العقيلي (عبدالله بن علي بن عبدالعزيز الدخيل) مع بعض (العقيلات) من الشام إلى القصيم، فلما قربوا من الجوف مرض عبدالرحمن ابن سعيد السعيد مرضًا عضالاً، ما جعله غير قادر على ركوب الإبل، فقال عبدالله الدخيل: واصلوا يا عقيل، سيركم، وأنا أجلس معه حتى يطيب، فأكملت القافلة سيرها للقصيم، وجلس يعالجه مدة شهرين حتى مات[2]».

النخوة:

النخوة من العادات المتأصلة في العرب، فلما جاء الإسلام نماها وهذبها، وقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى إليه أعرابي، فطلب منه أن يستخرج حقه من أبي جهل لما ماطله بقيمة إبل باعها عليه، فقام الرسول صلى الله عليه وسلم معه إلى بيت أبي جهل، فطرق عليه الباب، فلما خرج أبوجهل، قال الرسول صلى الله عليه وسلم له: «أعطِ هذا حقه». فقال أبوجهل: نعم، فذهب وأحضر المال، وأعطاه الأعرابي، ولم يزل دأب الصحابة رضي الله عنهم والتابعين على هذا. والنخوة تختلف من شخص لآخر، وتحكمها المواقف والظروف، والمكان والزمان. ولأن (العقيلات) في حلٍّ وترحال، لا يقر لهم قرار، ويجوبون البلدان المحفوفة بالأخطار والمهالك، فالنخوة عندهم منقطعة النظير؛ لأنهم في حاجة إلى بعضهم، ومن صور ذلك:

١) إنقاذ (عبدالله العلي الرشيد) على يد عقيل:

قال الرحالة الإنجليزي لوريمر: «أرغم (عبدالله بن علي بن رشيد) إثر خلاف دب في حائل على الهرب من البلاد متخذًا طريق الجوف إلى الشام. لكن جماعة من قبيلة عنزة هاجمته هو وأصحابه، وجرح هو جرحًا خطيرًا، حتى إن المهاجمين اعتقدوا أنه من القتلى،

(١) معجم أسر بريدة: جـ١٥، ص٢١٦.

(٢) رواها لي المهندس: عبدالعزيز بن عبدالله الدخيل عند زيارته لي في منزلي عام ١٤٢٩هـ.

لكن تاجرًا (عقيليًّا) كان مارًّا بالطريق، متجهًا إلى الشام، حمله إلى دمشق، حيث عولج فيها، وشفي من جراحه[1]».

٢) الشيخ فرهود وإخراجه من سجن الترك على يد (العقيلات):

ولم تقتصر نخوتهم فيما بينهم أو لأهل بلدهم، بل تعدت إلى ما هو أبعد من ذلك، فشملت كل مضيوم يرون بمقدورهم إغاثته وحل معضلته، فهذا (فرهود) أحد شيوخ العمارات من عنزة سجنه باشا الترك بعد أن قبض عليه في سوق حلب، فلما علم به (العقيلات) أرسلوا إليه رسالة مفادها أنهم سيخرجونه من السجن في يوم معين، ويعودون به إلى بغداد، فلما وصلته الرسالة قال هذه القصيدة:

يقول فرهود وهو بالحبس مكتوف ... وا ويلتي من ضيم شٍ جرى لي
يابد ما يقفن بنا الهجن بزلوف ... يبغن هيت قبل عشرة ليالي
وحْدعش دنوا لهن كل مشحوف ... نقطع بهن شط الفرات الزلال
واثنا عش يرمى بهن حزة الشوف ... أم المشارع وأم سدر عوالي
ياما حلى ان هفن على الشيخ معروف ... وزبيده اللي راس مبناه عالي
تلفي على القصمان ربع بهم نوف ... أولاد علي مرخصة كل غالي
سلاحهم جوز على الورك مرصوف ... دق الفرنجي مثل نجم المحالي
ملبوسهم ماهود يشرى لعمل صوف ... رجالهم بينين سواة الجمالي
زبن الغريب ليا نخاهم على الشوف ... الجيش حاضر وبالفعل يعتنى لي
ما قلت هذا إلا أنا بالضيق مكتوف ... عيَّال ياتون حين السوالي
مجهودهم يدْوه ولا هم هل حسوف ... ما يصير مثل اليوم كودهم قبالي[1]

٣) «كان العقيلي (سليمان النجيدي) بالعراق يريد شراء إبل، وجاء رجل من أهل بريدة، وكان هذا الرجل مشهورًا بالكرم والرجولة، ولكن قدر الله عليه خسارة كبيرة جدًّا، وبلغ هذا الخبر سليمان النجيدي، فذهب اليه، وقال له: سمعنا أنك خسران، وليس عندك

(١) لوريمر: دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ٣، ص ١٧٢٤.

obeikandl.com

شيء. قال: نعم. قال سليمان: أنا سأدعو الناس للعشاء، وأطلب منهم مساعدتك، ونحر سليمان بعيرًا، ودعا جميع (العقيلات) للعشاء. ولما تعشوا قال لهم: إن أخاكم فلانًا صار معسرًا، وتعلمون رجولته وكرمه. نريد أن نجمع له، فتبرع الشيخ سليمان النجيدي له ببعيرين، وأحضر العُقْل (جمع عقال، وهي ما يعقل به البعير) معه، وعددها ١٠٠ عقال، ولما صار الصباح وجدوا عند خيمته مئة بعير[١]».

حب الوطن:

حب الوطن أمر جُبِل عليه الإنسان وفطر، فهذا الرسول صلى الله عليه وسلم لما أراد الهجرة، التفت إلى مكة، وقال: «والله إنك لأحب البلاد إلي، ولولا أن قومك أخرجوني منك ما خرجت»! وقوله صلى الله عليه وسلم: «**اللهم، حبِّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد**»[٢].

فإذا كان هذا قوله صلى الله عليه وسلم، فمن الواجب الاقتداء به. وكثيرًا ما نقرأ، ونسمع من شعراء العرب في الجاهلية والإسلام تواجدهم على الديار، وحزنهم عليها، ومخاطبتهم الأطلال، بل وصل الحد إلى ما هو أبعد من ذلك، ألا وهو القتال وسفك الدماء من أجل الديار، وصدّ المعتدين عنها.

قال أعرابي[٣]:

أُكَرِّرُ طَرْفي نحو نَجْدٍ وإنَّني ... إليه، وإنْ لم يُدْرِكِ الطَّرْفُ، أنْظُرُ
حَنينًا إلى أَرْضٍ كأنَّ تُرابَها ... إذا مُطِرَتْ عُودٌ ومِسْكٌ وعَنْبرُ
بِلادٌ كَأَنَّ الأُقْحُوان بروْضَةٍ ... ونَوْرُ الأَقاحي وشْيُ بُرْدٍ مُحبر
أَحِنُّ إلى أَرْضِ الحجاز وحاجَتي ... خِيامٌ بِنَجْدٍ دونَها الطَّرْفُ يقْصُرُ
وما نَظَرِي مِنْ نَحْوِ نجْدٍ بنافعي ... أَجَلْ لا، ولكنِّي إلى ذاكَ أَنْظُرُ
أَفي كُلِ يَوْمٍ نَظْرَةٌ ثُمَّ عَبْرَةٌ ... لِعَيْنَيْكَ مجرى مائها يتحدَّرُ
مَتى يَسْتَرِيحُ القَلْبُ إمّا مُجاوِرٌ ... بِحربٍ وإمّا نازِحٌ يتذكَّرُ

(١) من ذاكرة الأستاذ علي بن إبراهيم السعود النجيدي عند زيارته لي في منزلي عام ١٤٣٠هـ.
(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٨٨٩) ومسلم (رقم ١٣٧٦).
(٣) عيون الأخبار ٢/١٣٣وانظر ديوان قيس بن الملوح /١١٦.

وحب الوطن لم يقتصر على الإنسان وحده، بل شمل البهائم والطيور، فهذه الإبل إذا ضيعت فإنها تعود إلى مراتعها التي نشأت فيها.

ومما يذكر أن (عبدالرحمن الرواف) اشترى جملاً من العراق، وأتى به إلى بريدة، فجعله في مزرعة والده بالصباخ يسني مع الإبل، وبعد سنتين تقريبًا ذهب عبدالرحمن الرواف إلى العراق مع (العقيلات). وبعد أشهر من ذهابه شاهد خمسًا من الإبل تقريبًا عند النهر، وفي مقدمتها جمل، والجمل يقطع النهر، والإبل لا تقطع النهر؛ (لأنها من إبل نجد، ولم تعتد عبور المياه)! ثم يرجع الجمل مرة أخرى يريد من الإبل أن تقطع النهر معه! فلما قرب عبدالرحمن منها، فإذا هو جمله الذي اشتراه من العراق، قد انفلت ومعه الإبل التي يسنون عليها في مزرعتهم في صباخ بريدة، ورجع إلى مرباه ومراتعه الأصلية!

إذن ليس بمستكثر على الإنسان أن يحن إلى بلده، ويشتاق إليه.

ولنتدبر هذه القصيدة المدوية التي ألقاها الشاعر محمد العوني، وكيف قلبت الأوضاع التاريخية والسياسية في نجد رأسًا على عقب.

«بعد معركة المليداء عام ١٣٠٨هـ التي هُزِم فيها أهل القصيم، فهم ما بين مقتول ومأسور ومشرد. وفي عام ١٣١٧هـ، هرب المسجونون من آل أبا الخيل من قصر برزان بحائل يتقدمهم الأمير (صالح الحسن) وإخوته وعمه وأبناء عمومته وعددهم ثمانية، وبرفقتهم حمود العبدالوهاب، وسالم الذايدي من أهل بريدة[1]».

ثم حصلت معركة الصريف عام ١٣١٨هـ بين مبارك بن صباح ومن معه من أهل القصيم وغيرهم ضد عبدالعزيز بن رشيد ومن معه، التي هزم فيها مبارك الصباح وأتباعه.

وبعد معركة الصريف جلا أكثر أهل القصيم إلى الكويت والعراق والشام ومصر، وغيرها من البلدان، وفي مقدمتهم آل مهنا أبا الخيل أمراء بريدة، وآل سليم أمراء عنيزة

(١) لتفاصيل قصة خروجهم انظر: خزانة التواريخ النجدية: ج٤، ص١٠٥وما بعدها برواية الشيخ سليمان بن عبدالله الرواف - رحمه الله -.

وغيرهم، ولم يبقَ في القصيم إلا المحسوبون لآل رشيد وأصحاب المصالح والمستضعفون، وكان الشاعر (محمد بن عبدالله العوني) ممن جلي. وقد عُرف بولائه لأمراء بلده آل مهنا، وحبه لبلده بريدة، وبقوة شاعريته، ودهائه وحنكته، فاقترحوا على العوني أن ينظم قصيدة يستحث بها (العقيلات)الذين في الشام وفلسطين والعراق ومصر، وغيرها؛ ليشحذ بها هممهم، حتى يثأروا من عدوهم، ويستردوا بلدهم!

وذات يوم خرج الشيخ (مبارك الصباح) حاكم الكويت في نزهة، وبرفقته الشاعر محمد العبدالله العوني، وفي نزهتهم تلك صادفوا بدوًا رُحَّلاً ومعهم رعايا الإبل، ومن بين هذه الإبل ناقة خلوج فقدت وليدها، ولها حنين كله أسى وحزن، ودموعها تتساقط، لا يهدأ لها بال، ولا يقر لها قرار، تبحث هنا وهناك عن وليدها، فأثارت انتباه الشاعر، فجادت قريحته بهذه القصيدة العصماء، التي قلَّ من لا يعرفها ويحفظها، أو يحفظ شيئًا منها خاصة من أهل القصيم؛ وذلك لقوة معانيها، وجزالة ألفاظها، وتأثيرها العاطفي.

بعد ذلك خرج الأمير (صالح بن حسن بن مهنا) ومعه رجال منهم الشاعر (علي بن محمد الحميدة) بهذه القصيدة إلى البلدان التي يقطنها (العقيلات)، وخاصة دمشق، فانتشرت هناك.

«قصيدة الخلوج»

خلوج تجذ القلب بتلا عوالها ... تكسِّر بعبرات يحطمن سلالها
تهيض مفجوع الضمير بحسها ... لا طوحت حسه تزايد هجالها
له قلت أنا: يا ناق كفي عن البكا ... لا تبحثين النفس عما جرى لها
لا تفجعين البال بالله هوّدي ... ولّي خلوج خبَّث البين بالها
تبكين فرقا بكرة شدة العرب ... ضاعت يمين البوش والا شمالها
تجيك يا ناق الخطا أو تجينها ... وإن كان ضاعت لك بديل بدالها
لكن أنا يا ناق ما تعدد مصاوبي ... ولا علتي تبرا ولا ينشكى لها
فلو البكا يا ناق عني يحلها ... بكيت بيض أيامها مع ليالها

ولو البكا يا ناق يرجع الغايب ... بكيت لين العين ييبس ثمالها
وأبكي على الاثنين ما ذعذع الهوا ... مدى الدهر لين النفس تلحق زوالها
وأبكي على ما صاب نفسي وما جرى ... وأبكي على فتخان الأيدي زلالها
وأبكي على دار ربينا بربعها ... معلومها خشم الرعن من شمالها
ومن شرق طعسين الأراخم تحدها ... بين اللوى والسر ما أطيب سهالها
دار لنا في نجد هي جنةٍ قبل ذا ... ومن صكته غبر الليالي عنا لها
وصفه من الخفرات بيضا عفيفه ... هي فوق كل البيض باهر جمالها
حسودها يغضي لى مرّ حولها ... من خوف عيالٍ تربوا بجالها
هي أمنا وا حلو مطعوم درها ... غذتنا وربتنا وحنا عيالها
برور بنا ما مثلها يكرم الضنا ... وصول لنا لكن نسينا وصالها
تلقى علينا الجوخ والشال فوقنا ... وهي عاريةٍ تبكي ولا أحد بكى لها
ولا أحد جزع من صيحته يوم سبلت ... ولا أحد نشد من بعدنا وش جرى لها
قلت آه وا ويلاه يا خيبة الرجا ... كيف أمنا تهضم وحنا قبالها
يا طارشي من فوق سرّاقة الوطا ... هميمٍ إليا سرَت ذعَرها ظلالها
حايل ثمان سنين ما مس خَلفها ... ولى برّكت للشيل جملة حيَالها
إلى بدا لي لازمٍ قلت شدّها ... واضبط عن الفزات مقضب حبالها
ولا تعتني بالخِرج ما ذي بحزتِه ... خذ قربتك واجعل زهَابك عدالها
والى شلت خذ لي بالرسن قدر ساعة ... أبلغك عن دق المسايل جلالها
والى ختمته بالسلام فحشها ... من دار أبو جابر سقى الغيث جالها
أوصيك يا مرسال بالسير والسرى ... وحاذور نوم الليل عينك ينالها
إلى سرتها عشرٍ وخمسٍ مغرب ... مرواحك الميدان منها منالها
وإلى جيت سوق العصر تاتيك غلمةٍ ... تخثّع بزبنات البريسَم نعالها
يقولون لك: يا صاح عطنا علومك ... بلدان نجدٍ عقبنا وش جرى لها
قل كل بلدان القصيم وغيرها ... زمت كل دار دون جالها رجالها
إلا أمكم من بعدكم تندب الثرى ... تبكي على الماضين واعزتا لها

لعبوا بها الأجناب لا رحم حيكم ... والبيض بالبلدان شتت لحالها
شيابكم تضرب على غير موجب ... من عقب كبر الجاه تجذب سبالها
أولاد علي اليوم ذا وقت نفعكم ... لا رحم أبو نفس إتاجر بمالها
أولاد علي ترى الليالي قصيرة ... ولا للفتى غير الثنا من نوالها
أولاد علي اليوم ما هوب باكر ... قوموا بعزم الليث خلوا أرذالها
لا تتبعون الهون والعجز فعسى ... أو ربما أو ليت يتعب سوالها
كود ورجاء يا ناس ما هيب عندكم ... هاذيك ما لحقوا هل العرف جالها
وذي قالةٍ ما ينطحه كود نادر ... أولاد علي من بكم قال: أنا لها
ترى مركب الأخطار هو مصعد العلى ... ولا يدرك المقصود غير احتمالها
وترى بالسيوف المال والعز والبقا ... والجنة الخضرا بخضرة ضلالها
قوموا برأي الله واقضوا ديونكم ... أنتم هل القالات ما أنتم أرذالها
ما دام أبوجابر على العز والبقا ... وعنا ثقيلات الحمول ارتكى لها
إلى احترك سبع الجزاير تحركت ... وإلى رسى ترسي رواسي جبالها
قوموا برايه ثم راي أبوثامر ... أبو كلمةٍ يافي بها حين قالها
عرق الوفا بحر الندى مرْهب العدا ... ولى اشتبت الهيجا تعَرفه رجالها
هيَّج سباع الحرب بالبر والبحر ... والشمس تشكي عج خيله ينالها
ومصقلات الهند تدعي له البقا ... لولاه كان اصدت بغمده سلالها
نشا مولعٍ بالحرب والضرب ما شكا ... والخيل والعيرات تشكي هزالها
من كثر ما مسَّه على السير والسّرى ... ومن كثر ما خاضت مهامه سهالها
قوي باس ما يلين لمعضله ... وإن ضكته صعْب الحمول ارتكى لها
شال الحمول الكايده يوم جِدّعت ... واعفى زمولٍ جدعَتها وشالها
عفَّى مراعيها وبرَّد ظهورها ... وإن جيدلت بالسيف عدل جدالها
تذرَّى به السرحان والنمر والفهد ... ومن هيبته كلٍ رقد في اظلالها
أقسمت بالكرسي والنور والصمَّد ... واشهد بسكاب المطر من خيالها
ما جابت الخفرات سعدون أو مشى ... مثله على وجه الوطا من رجالها

من مثل أبوثامر إلى ضبضب القهر ... والخيل من البلنزا زاد جفالها
له هدةٍ ما قيل أبا زيد هدها ... ولا عنتر المشهور ما قِيل نالها
على سابقٍ تعطي على ما يريده ... ميتم ضعافين القبايل عيالها
تلقى كما لطم العرانين فوقها ... من خوف عيال تذكّر مجالها
شبيبةٍ تروي مقادم حريبها ... وذا من قديم طبع عمها وخالها
أوي والله لابةٍ تِرْعف القنا ... وهم ذروة الدنيا وذروة افعالها
إي لوهم شفيقين على عز شيخهم ... إلى عز شيخ القوم عزت إرذالها
إلى صاح بالمنشا على الموت سبلوا ... وردوا كما سيلٍ حدر من جبالها
نشاما يرون الموت هو متجرهم ... ومجادل الفرسان غاية سوالها
أبا الحق أنا بعض الشبيبه ملامه ... وتكرم عن شين الملامه سبالها
قل كيف عبدالله تعدوه وابنه ... ملحق قصيرات السبايا طوالها
خلّي مساعير الصريف ترودهم ... والضبعة العرجا تندب عيالها
وهم يزرعون العيش ما كن كارهم ... ويلاه يا عين تزايد همالها
لولا أبوثامر برد حر خاطري ... فرض سنة الشغموم وايتم اطفالها
سنة مهلل مع كليب خليصه ... فرضها أبوثامر وجدد سمالها
ذبح بعبدالله شيوخ كثيره ... مصابيح ظلما بالدجى ينعنى لها
ومن عقبهم مايه وتسعين لحيه ... ونفسه وعينه ما قضى عشر مالها
وإن عاش أبوثامر وسانع له الهوى ... كم خفرة ترمي الغطا من هبالها
تبكي قصايرها وتبكي حليلها ... وتبكي مشافيقه وترمي دلالها
هذا وتم القيل والله به الرجا ... وصلوا على المختار ما أهمل خيالها

وهناك من الشعراء من يشاركه الهمّ نفسه و الفكرة نفسها، ومنهم الشاعر صالح العبدالله السعيد من شعراء بريدة، فقد قال قصيدتين: الأولى (الحمية)، والثانية (العروس اليتيمة)، وتحملان المضمون نفسه والهدف عينه:

دنيا تدور أيامها وأزمانها ... واسنينها ودهورها واقرانها
ما غاب شمس وهل شهر أو طلع ... اللي جرا باللوح من عظم شانها
لا تامن الدنيا من الصد والخنا ... والبوق لا تغريك في نعمانها
كم غيرت من دولةٍ ما تنحصي ... اعدادها بسنادها واسنانها
وكم عوضت وصط القرايا بعد ذا ... فيما عمر مولودها وابدانها
تملك أموالـه وخذ معلومها ... غريب دار واعدمت صلطانها
من يجعل الدنيا هي أكبر همه ... كد اوجبت له مغتنم حقرانها
فلا الفخر بالمال يا صاحي ولا ... كثر النقود وجمعهم ميلانها
الرزق مضمون لنا عند الولي ... قوت تكفل به لنا رحمانها
ما ظن فخرٍ إلا بتقزات العدا ... بمصقل الهندي وغر اوطانها
وضربك لراس الضد ألذ من الشهد ... وصط البلاد بمصقلات اسنانها
فيلا توليتم الغريم بداركم ... عطر بدمه ما حوت جدرانها
ولا ترحم اللي ضديد مجرم ... لو هو قريب من بني عمانها
لا دار زلات عليك فدّر ... عليه زلّة ان حصل بمكانها
ولا تقول إن ذا ابن عم وذا ... عم أو خال اذبح وقص جرانها
ترتاح ما دام الزمان وتملك ... ولا وليت اقصر شبح علمانها
فن كان ما تقدر ولا جو الضحا ... فحسب لهم في خرمسٍ قل امانها
ولا وليت الدار لا تترك بها ... عاجز ولا طفل تشوف اعيانها
انظر إلى أولاد الجراد إلى ظهر ... نميلي ولا بلغ كتفانها
ياكل جميع اللي نبت فوق الوطا ... وشره وسوه لا ظهر جنحانها
الدار ما له من عدوك صالح ... اذبح على شبانها شيبانها
ترا العدو ولو ذل في وقت فهو ... يركب إلى هب الولام حصانها
والى وليت ارحم وكن به رايف ... إلى بان ذل سكانها واذعانها
ولا انتزع ما باليمين وشفته ... تبدل جفا دنياك مع حقرانها
وسط البلاد اللي كسبت به العلى ... عنها انتزح لا تشمّت عدوانها

أحذرك تقعد وسط ذل بالبلد ... لو تقتلب لك حصيانها دانها
لو ان حصباها تقتلب لك لولو ... ودر وياقوت نما قنينانها
الصبر للتسعين ما هوب طيب ... كيف الثمان ترضى على خذلانها
لو الثلاثين امتثل من ناصح ... يزعل زعل تسعينها واثمانها
يشهر كما حر شهر جو السما ... تومي سبوقه لاستراح هدانها
تومي اسبوقه بالفجوج لرزقه ... يشهر ويومي صيرمي عقبانها
عاين نجايع روضها دوراج ... أرنب وحبارى وسمقانها
أدلا بمخلابه وطاح له العشا ... شهر يبي يرمي الغدا بوزانها
صفق مخامير تلاوذ بالشجر ... وقفت تتقا بالشجر شذانها
لا ترتجي من نيل من حاش الغنا ... ترجي ليام غلَّقت بيبانها
ترج مدة واحد فرد صمد ... مغني الكفار عابدين أوثانها
ما صك باب الرزق مجري القدر ... مقسّم الأرزاق في قدرانها
إمقيت حوت اليم وطيور الهوى ... وانسٍ وجنٍ وابلها وحيوانها
ولا تهاون بالامور فربما ... واليت راع الكيد من حسدانها
صادم بعمرك فالمات أشوا لك ... من نبح لوقي مفخت سلقانها
ولا كسبت العز من راس العلى ... واجريت مجرا سوها بجرانها
واهفيت مجرمها فذبح غريمها ... وراعي الحساني ينجزي بحسانها
قلته ولا لي بالديار غليله ... ولا لي بها غين غلت باثمانها
شفق على الوطن وعز جماعتي ... واكره الضد ساكنٍ باركانها
لما رأيت العدا تمكر بالعهد ... تخون عهد الله في سكانها
أدنيت لي حمرًا من ضراب طيب ... جدعية ما جا الثفن بثفانها
إلى غدت كالقوس من شد الظما ... يا كود تاصل للشداد بطانها
يا من تحط اشدادها لسنادها ... لا جاك عوق احتمل عنوانها
فلا حملت من الحزين وصيه ... واخذت مكتوبي ورسم افنانها
ثم ارتحل عقب العتيم بساعه ... ترا الطراقي ما تنام أعيانها

من ديرة الساحل عساك مساعد ... متعرضٍ للخوف عقب أمانها
خله مع الدو المخيف تزرفل ... زرفال ربدا فاختت ربدانها
من ديرة الجابر سرت عقب العشا ... وضحّت بشقرا وعطنت معطانها
ثم اسقِه وعلها لين ارتوت ... ورد الجودي من عذي قلبانها
واركب عليها عقب ما زال الغدا ... واجعل مغيب الشمس بين أعيانها
سجه وهجِّه مع لجاج هباجها ... وبانت مقافي مستذر غزلانها
عقب الثلاث بعين صيد شرعت ... عشت حوالي هوره ومعدانها
سرها وخل الرفق عنها يولي ... وقفت تبوج حزومها ذرعانها
يكمل لها اربع ليال واربع ... وتالي نهار التسع في ميدانها
ثم استريح وريحه عقب التعب ... ببلاد روم ما تربى ادقانها
فلا بدا نور الصبح بنوره ... والناس صلوا بعد وقت اذانها
وظهر شعاع الشمس ثم تبينوا ... ونصبت كراسي لابتي بديوانها
ولبس يشادي للرخام وفوقه ... لبس الحرير مخرج لبدانها
عادتهم لبس الشهر جدّيّه ... وشمغ وعقل كنها غربانها
صح بالحمية طول حسك واجهر ... اندب لنا شيبانها وشبانها
قل: يا هل الفعل الجميل منول ... واهل الهمم يا حيف يا قصمانها
يا حيف ظهدت داركم مع جاركم ... تحللوا عدوانها نسوانها
قوموا وعدوا عن حماها بادروا ... بحدود هندٍ وصنع امانها
أنتم تركتوها جهار للعدى ... ولا له احذاكم رمسوا فرسانها
عزومكم ضعفت ولا من شيمة ... تتلون فرن خمرت رغفانها
متى الجدا وصبركم في ثبركم ... واعيالكم فيها غدوا يتمانها
يا حيف يا لقصمان كيف بلادكم ... للذل كاسٍ بطنها واركانها
ينخنكم بيض العذارى وطوحن ... زفرات عبرات بكن شبانها
أضداد تبطش ولا من سألها ... تكفون عجل بالعجل لوطانها
منتمب قليلين يعذرون الملا ... ولا قل مال فبذلوا ميلانها

أمر بلا حظ شقي دايم ... ومال بلا بذل ضريع أغصانها
اللي بساعات الرخا يضحك لك ... بهرج وهرجه من هبا دخانها
ما عُمْر ديَّان ترك ديانه ... وكل الرجال تقوم في حقانها
وانتم تركتوا داركم لغريمكم ... وارخا حدود السيف في سكانها
أمر جمع مال ويترك عزا الوطن ... خله يولي واحتزم بعوانها
أقول ذا شفق على عز الوطن ... وشفقٍ بعز ابطالها واعيانها
لو كان مالي في جباها غرسه ... ولا قليب يقال ذا ديوانها
ولا بضيعي بالبلد التاجر ... اصنف الاجناس في دكانها
فإن كان ما منهم غيور يحتمل ... شداتها ومصادمت عدوانها
شم يا نديبي عن وطنهم وارتحل ... لا جاك عوق مع نكاد امتانها
تل الفرس حطه يمين وخلّها ... تنفا رسوم شعوفها مع صوانها
خلّه تهبط الغور ثم تجعله ... خلف عن المرجه بشوق اقرانها
ثم عقب ليلين وليل روحت ... على معاطن عبرها ما هانها
دولابها الكبري وفاتت بعد ذا ... مناخ ريف اللي تخب ارسانها
هو مزبن المضيوم ينبوع الندى ... أحمد منادي للعشا جوعانها
أحمد ولد عبدالعزيز المشتهر ... مفني أرقاب الكوم مع خرفانها
تلقا بديوانه دلال كنها ... وزٍ تكلف خادمه سلمانها
وفرش ورايات شقن في بيته ... وقدور يشكن من لهب نيرانها
تلقا بديوانه مجامع لابتي ... كل يقول الزمل ويش أثمانها
ما سايلوا عن دارهم واللي جرا ... هدّم مقادم ضدها جدرانها
لو هم مع اللي بالمليدا كد فنوا ... جمضت حزني راحت لبدانها
فن كان ما له ناعي منهم ولا ... فيهم غيورٍ يستشين بشانها
خله بحظ بليس ما لي مثلما ... لهم فيها يطير به شيطانها
وختمت قيلي بالصلاة مسلم ... على الذي بالدين شاد أركانها

وقال الشاعر صالح السعيد أيضًا قصيدة (العروس اليتيمة):

لفت وقامت جنح ليل عروسها ... يا من لها عن ضد زوج يدوسها
تكامل لها عشر وثلاث ميتّمه ... يا من لها به واكتفلها نجوسها
فلما بدا من ذلها زايد الجفا ... عن اللي تولاها وشلع ضروسها
ولا من غيور يجعل الروح للفدا ... لعل الفرج بتلاف الانفس وروسها
تنحت ورامت جال خير يجيرها ... عسى تفلك باسباب ذا من عبوسها
فلما ايتقظ جفن عيني من الكرا ... وجلا النوم لي وذهلتني احسوسها
ولا من تمنيته يشاهد يقول لي ... دع النوم يا بجح وانا في تعوسها
تنبهت مرعوب وقالت لي: اطمئن ... فلو كان جا فيها ضواري تنوسها
سألته برب البيت والركن والحجر ... افيدي من انتي وحلفت لي غموسها
فلا غير من برّت وغذّت وربّت ... برور بكم اضفت عليكم غروسها
رحوم إلى حل الشقا ودمدم القضا ... إلى بان من سود الليالي رموسها
إلى اقفا شتاها واقبل القيظ واحتمت ... طعوس بحره موجعتكم شموسها
لذيذة منام عنه الاطلال جنبت ... والبق والبرغوث ما جا طعوسها
غدت عقب حاميها مقزى عن الحما ... اعداها تودع به جماله تيوسها
تقدم بها ضده وعنهم تبدلت ... عن الحي حي من اعداه نحوسها
ألا ليت ما حدر الثرا ظاهر الثرا ... يحيون لي واللي عليها رموسها
ألا يا برور الدار ناصل بوصلك ... لك الوفد من بلدان مصر فلوسها
فلا شي يدور الحرب والضرب يكتسب ... سوا هندي يدعي مخ الراس دوسها
وذا مالنا عنه لو قزينا عن العدى ... وما فات يكفي عن رزايا نفوسها
قالت فلا شفّي بمالٍ وانا الذي ... بجالي رجال من عدوي نحوسها
بدمشق توطنتوا والعراق وصار لي ... من الضد حبس لي وصرتوا جوسها
فلا تتركوني بين الاجناب والعدا ... الا يا رجالي جذ راسي بموسها
ألا يا رجالي ليتكم لي على النضا ... تشيلون واسلم من تعوسه ولوسها
ألا يا رجالي ليت مسمع بفعلكم ... حميتوا بلاد الغرب من خبث عوسها

متى صبركم لا جمَّل الله حالكم ... تتلون زملٍ حجّزت في كلوسها
ألا يا رجالٍ ما تبي مكسب الثنا ... تعاف المحامد شانها عز روسها
يعيش من فيها رجال تبينوا ... يناحون ضد الدار ما هي نموسها
عيالٍ عدامٍ لابةٍ تنطح العدى ... وتجعل نهار الكون روسه تروسها
شغاميم شبان ضحى الكون والوغا ... إلى من فرسانه غدوا به خروسها
سلامي عليهم كلهم عدد ما همل ... على الخد وانبت ممحله مع يبوسها
زها بالزهر خده ونبتت محايره ... وزانت حزوم ما تروده عسوسها
ألا يا صاحي البال بلغ عن الذي ... يروم فكه وافتكاك محبوسها
يرومون فكه والمصالح لغيرهم ... هل العز والعرنه هبو عن عبوسها
فذولاك مع شيخٍ ابن شيخنا الذي ... تضيع من افعاله اروات هجوسها
حليم على القدره عفيف عن الردى ... ولا داس زلات وصافا هيوسها
كمل واكتمل به من عفيفاته الذي ... حواها ونال بها معالي جلوسها
سل الله من تسعي له من ربي له البقا ... وتوفيق حظ من منشي طموسها
وعسى للثلاثين والثمان من الولي ... معالي رتبها يعتلي فوق روسها
أقوله وصلى الله على سيد الورى ... عدد ما ورد عدٍّ ونشت رسوسها

وخرج الأمير (صالح الحسن آل مهنا) إلى الشام، ومعه مجموعة رجال منهم الشاعر (علي بن محمد الحميدة)؛ ليستحثوا جماعتهم الذين كانوا هناك، فلما وصلوا الشام، تقابلوا مع جماعتهم، وانتشرت تلك القصائد بين (العقيلات) في الشام ومصر وفلسطين وغيرها، فتوجهوا إلى دمشق، فكان لقاء حارًّا، وبكوا، والتهب حماسهم، وثارت حميتهم، وصفّوا تجارتهم، واشتروا الأسلحة والذخيرة، فلما تكاملوا تجمهروا بزعامة أميرهم (صالح الحسن)، وعددهم ألف ومئتان، ثم عرضوا بطبولهم، ورقصوا رقصة الحرب، ورفع رايتهم (عبدالكريم بن عبدالله الجاسر)، الملقب بـ (الحقلة)، وبلغ خبرهم الوالي التركي، فسأل أحد المقربين له من أهل القصيم عن خبرهم؟، فقال له: إن في بلدهم نجد حربًا، وإن الأمر ليس فيه خطر عليكم! ثم خرجوا شرقًا في اتجاه نهر الفرات؛ ليبعدوا عن جهة ابن رشيد الذي يترصد لهم، ولينضمّ إليهم جماعتهم الذين في بلدان العراق، وليغيروا على شمر الجزيرة

الموالين لابن رشيد الذين في طريقهم. وهذا ما تم بالفعل، فقد أغاروا على بعضهم، وهرب آخرون لجبل سنجار شمال العراق جنوب شرق تركيا، وبعضهم عبر شط الفرات، ولجؤوا إلى الحيرة. وأما أهل القصيم فاستمروا محاذين لنهر الفرات في اتجاه الجنوب، حتى وصلوا الكويت، وعددهم ثلاثة آلاف، وكان في معيتهم الشاعر محمد الصغير، وعلي الجاسر، وحمود البراك، ومحمد الشويهي، ومنصور الجربوع، ومحمد الرشيد، ويحيى وإبراهيم الشريدة وغيرهم كثير، فقال الشاعر محمد الصغير بهذه المناسبة هذه القصيدة:

يوم جا شيخنا جينا معه سله ... كل عين بكت من شوف غاليها
نرخص العمر دون الشيخ ورضًا له ... والعمار الغوالي ما نداريها
بامر شيخ شبوب الحرب كار له ... من قديم وجده سالك فيها
كم سهجنا براي الشيخ من حله ... طلعة الشمس والبيرق مفاجيها
ملتجين ورا سنجار في ظله ... من ورا الشط والحيره لجو فيها
اترك اللي يهاب الموت والذله ... دبرة النفس بيد الرب واليها
واترك اللي إلى رزته غدا فله ... ذاك لا تجعله ذخر لتاليها
من بغى مقعد الحقران والذله ... ينثبر عزوتي لا عاد يطريها

فلما وصلوا إلى الكويت في منتصف عام ١٣٢١هـ، واجتمعوا مع الذين في الكويت، انطلقوا قبيل رمضان عام ١٣٢١ هـ، يتقدمهم الأمير صالح الحسن المهنا، وعددهم (٣٠٠٠) عقيلي تقريبًا، على ركائبهم وخيلهم، بهمم الجبال، كالأسود الكاسرة، يسرون في الليل، ويكمنون في النهار، ليس لهم همٌّ إلا تحرير بلدهم، والأخذ بثأرهم.

قال الشاعر محمدالعوني:

ولا بد ما تاطى بريده خيولنا ... ومن عقبها نشرب مياه اوثال
نجر العوالي والمعالي وعجنا ... يبني فوق الجبال جبال
وتحف بالسمرا مشاهير خيلنا ... ونشرب سماح والحسود نعال

فتقابلوا مع الملك عبدالعزيز قرب الزلفي في رمضان من السنة نفسها، ثم حصلت معركة السر في ١٣٢١/١١/٢٨هـ، وانتصروا فيها، ثم فتحوا عنيزة في ١٣٢٢/١/٥هـ، ثم فتحوا بريدة في ١٣٢٢/١/٨هـ، و في جمادى الثانية عام ١٣٢٢هـ حدثت معركة البكيرية، وانتصر

فيها الإمام عبدالعزيز ومعه أهل القصيم، وهزم فيها ابن رشيد والترك، ثم في رجب ١٣٢٢هـ حدثت معركة وادي الرمة، وهزم فيها ابن رشيد، وفي صفر ١٣٢٤هـ حدثت روضة مهنا التي قتل فيها عبدالعزيز المتعب الرشيد. وقد أسهم (العقيلات) في هذه المعارك، فبرزت شجاعتهم وخبرتهم في هذا المجال. قال الشاعر علي الحميدة:

شيخنا حنا شبوب الحرايب ... لى طفت حنا سنا نارها
ما لقينا غيرسمر العصايب ... يوم جا العسكر بزمارها

وقال الشاعر محمد الصغير:

لابتي تكفون حنا هل الديره ... لى نثنينا يا هله من يصاليها
جاه جمع عقيل هدم مفاجيره ... ما حلى ضرب النمش في علابيها

لابتي: جماعتي، حنا: نحن، لى نثنينا: إذا تقاعسنا، يا هله: يا أهلها، من يصاليها: من يتحمل مشاقها، ويقوم بأمرها، النمش: هي السيوف، علابيها: جمع علباة، وهي مؤخرة الرقبة[1].

وقال الشاعر غنيمان الغنيمان وهو في الشام يخاطب رجلاً اسمه (طريف) يتشوق إلى بلده (بريدة):

هذا طويل الثلج يا طريف جيناه ... متى على التسهيل يقعد ورانا
تل الفرس يا طريف حنا نزلناه ... وين الحطب يا طريف نوقد عشانا؟
البق والبرغوث حنا عرفناه ... والديرة اللي ما هواها هوانا
لولا البلا والبين ما كان جيناه ... ميرإن أبو موسى جميع حدانا
لي ديرة يا طريف ما والله أنساه ... لذاذه الدنيا اطعوس ورانا

وطويل الثلج: هو جبل الشيخ، ويقع جنوب دمشق في منطقة الجولان، طريف: هو رفيق الشاعر في سفرته، يقعد: يكون.

وتل الفرس: قرية صغيرة في الجولان، تمر بها القوافل وهي في طريقها إلى الشام، منين: مِنْ أين لنا، البق: البعوض، البرغوث: حشرة صغيرة، البلا والبين: كلمتان مترادفتان تعنيان المصائب والبلاوي والحاجة الماسة، أبوموسى: الجوع.

(١) من الأديب عبدالله بن سليمان أبا الخيل.

هكذا هو حنين رجالات عقيل لديارهم وشوقهم لملامسة كثبان الرمال التي خطّوا على ذراها حكايات الكفاح والصبر وكيفيّة الصمود في وجه الصعاب والإصرار على البقاء رغم الترحال والغربة[1]».

كان الشاعر عبدالعزيز بن صالح المهيلب الحماد من تجار (العقيلات) في فلسطين. وبعد مضي أربع سنوات (وذلك في حدود عام ١٣٥٠هـ)، ازداد شوقًا وحنينًا لأهله ولبلده بريدة، فقال هذه القصيدة موجهة إلى والده:

يا راكبًا حمرًا رسنها زماما ... أكواعها وازوارها ما يميلن
حمرا تفوج الدوّ مثل النعاما ... كفوفها بالقاع ما كنهن هن
شبهتها با لو صف مثل ا لحما ما ... ما تميز الجنحان من يوم رفن
ركابها متهقوين سناما ... شدادها واحبالها ما يبيدن
ركابها كرب جنايب حزاما ... والصبح من يافا على النبك يمسن
والصبح دار الورك والدرب هاما ... والعصر بسكاكا على القصر يلفن
والصبح من عنده له عجة كتاما ... والعصر عند الوالد اللي نشدهن
قله ترا عيني فزت مناما ... أربع سنين جالي من بلدهن
دين كثير وخايف من ملا ما ... والكل يشره ما نشد عن سهرهن
عيا يساعدني قعد في تهاما ... قلت الخبر قال المولى ما ومرهن
مير وداعتك يا والدي سمر اللثاما ... ما دمت بالغربه ترا همنا هن
ووجست يا والدي قلبي عليه غتاما ... وأوجست بصدري قدورن يفوحن
يا والدي حقك علينا الندامى ... من يوم شفت شيباتك يلوحن
حقك علينا مثل الفرض يتبع صياما ... حقك علينا نعض عليه بنواجذ ن
الله يعز نجد مع الامامى ... اللي تولاه وف وسلاح يجلن
وسلم على الجماعه ختامًا ... وعلى الإخوان والخوات ومن نشدعن

(١) عبدالكريم الطويان: من أفواه الرواة: ص٢٨٩، وانظر: معجم أسر بريدة: ج ١٧. ص٢١١- ٢١٢.

الفكر والمعرفة عند (العقيلات):

لقد صحب (العقيلاتِ) كثيرٌ من العلماء والمفكرين والمستشرقين والرحالة في رحلاتهم، والذي جعلهم يرافقونهم أمور عدة:

١. لأن (العقيلات) أدلاء، ويعرفون الطرق ومسالكها، فيرافقونهم؛ كي لا يضيعوا أو يهلكوا.

٢. حمايةً لهم ممن يطلبهم، ويترصد لهم.

٣. الاستفادة من ثقافتهم ومعرفتهم في شتى المجالات؛ لذا نجد أنهم أخذوا منهم الكثير من المعلومات، ودونوها في كتبهم.

ولنقرأ ما كتبه عنهم بعض أولئك.

قال الرحالة لوي جاك روسّو القنصل الفرنسي: «إن (العقيلات) يذودون عن الغرباء بكل ما عندهم من عزيز[١]».

قال الرحالة ولفرد بلنت: «كان العقيلي زيد يتحدث معي عن بعض الفلاحين المصريين، فرأى زيد فيهم أنهم بسطاء، يخشون الظلام خوفًا من العفاريت. وتستمر المحادثة، حيث يسأل بلنت: ألا يوجد في نجد عندكم عفاريت؟ ويجيب زيد: الإيمان بوجود العفاريت ضرب من الجهل. لا توجد عفاريت أصلاً، لا في نجد ولا في غيرها، ولكن هؤلاء القوم سذج، تجف دماؤهم عند ذكر العفاريت.... قال بلنت: يا لك من فيلسوف!... هل يرى كل أهل نجد رأيك في العفاريت؟ قال زيد: أهل نجد قوم شجعان. ولهذا لا يعرفون العفاريت. يسافرون لفترات قد تبلغ العشرة أو العشرين أو الأربعين يومًا في الصحراء، ولا يصادفون فيها عفاريت. إننا في نجد لا نؤمن بغير الله. قال بلنت: هل لا تؤمن بأي شيء من هذا القبيل؟ قال زيد: إن أهل نجد لا يخشون مخلوقًا. بالطبع هناك الشيطان الذي يظهر لهم أحيانًا متقمصًا صورة بقرة أو ماعز أو خروف، وغير ذلك. ولكنهم لا يخافونه، فهو لا يؤذيهم؛ لأنهم مؤمنون بالله تعالى. قال بلنت: هل يتحدث النجديون إلى الشيطان؟

---

(١) الرحالة لوي جاك روسّو: رحلة إلى الجزيرة العربية سنة ١٨٠٨م، ص٧١.

obeikandl.com

قال زيد: قد يسير الشيطان معهم متنكرًا، حدث مرة أن رجلاً من بريدة كان يمتطي ذلوله مسافرًا وحيدًا دون أنيس. هبت عاصفة، واكفهرت السماء، وأظلمت الأرض، فما عاد الرجل يرى شيئًا. وبينما هو على تلك الحال سمع صوتًا يناديه، يسأله عن وجهته التي يقصدها في ذلك الجو المكفهر؟ لم يشعر الرجل بالخوف. وحين ومض البرق أبصر الرجل خروفًا تعلق برقبة ذلوله، فمد يده يتحسس، ثم قال: ما أنت والله إلا خروف، ودليلي في ذلك أن لك فروة. ورد الشيطان: وما أنت إلا متحكم في مشاعرك وتفكيرك، إلا خروف أيضًا. وخلص الشيطان نفسه من رقبة الذلول، وانزلق إلى الأرض موليًا[1]».

قال لورنس العرب: «وعند عودتي توقفت عند موقد نار رجال عقيل لأخذ كوب من القهوة معهم، في حين كنت أستمع إليهم وهم يتحدثون باللهجة العربية النجدية، وبدؤوا يروون لي القصص الطويلة عن الكابتن شكسبير، الذي استقبل من قبل ابن سعود في الرياض كصديق شخصي، واجتاز الجزيرة العربية من الخليج الفارسي (العربي) حتى مصر؛ وقتل في نهاية الأمر في معركة مع شمر[2]، في نكسة تعرض لها أبطال نجد خلال حروبهم الدورية[3]».

«يقول الشيخ علي الحليسي: شرقت مع (العقيلات) إلى القصيم مارًّا بفلسطين والأردن، وكان جلوب باشا قائدًا للقوات الأردنية الملكية في ذلك التاريخ، ويلقب (أبوحنيك). جلسنا مجتمعين مع جلوب باشا بالأردن على مائدة الطعام بالصحراء، فقال لي: يا شيخ علي، أنتم تسافرون، وترحلون بقوافل جمالكم طلبًا للرزق والمعيشة، وسيأتي الوقت الذي ستتجه فيه جميع أنظار الناس في العالم إلى جزيرتكم لطلب الرزق والمعيشة، وستنهضون، وستتطورون[4]».

قال المؤرخ الأديب محمد كرد علي في مذكراته عن رحلته مع (العقيلات) وكيف نجَّوه من قبضة الحكومة التركية، وما شاهد من تمسكهم بدينهم، وصدقهم ووفائهم، ووقوفهم مع الآخرين، وعدم سؤالهم عما لا يعنيهم: «وسعدت في هذه الرحلة أن رأيت

---

(١) Blunt Scoisn p. 36 نجديون وراء الحدود: ص١٨٨.

(٢) قتل شكسبير في معركة جراب عام ١٣٣٣هـ، حينما كان على مرتفع يصور أحداث المعركة. قتله رجل من أهل حائل اسمه (سالم الدعيث). ولقد أُتلفت آلة التصوير بما فيها من صور حقيقية!

(٣) أعمدة الحكمة السبعة: ص٣٠٢.

(٤) عصر العقيلات: ج١، ص٣١٣.

بين الشام ومصر صورًا مصغرة من عيش أهل جزيرة العرب، وذلك باختلاطي مع تجار الجمال ورعاتهم، وكلهم نجديون لا يعرفون الفضول، وما رأيت أحدًا سأل خويي العقيلي (عبدالعزيز المحيسني) عني بالإشارة ولا بالعبارة. وكانوا في كل صباح ومساء يجتمعون معنا، ونجتمع معهم لشرب القهوة والشاي معًا، وحديثهم في البعير وسوقه ورعيته وثمنه ورواجه وكساده! ولم أسمع في أربعة عشر يومًا بلياليها كلمة هجر وبذاء، ولا تجديفًا ولا لعنًا، ولا نميمةً ولا غيبة ولا كذبًا ولا منكرًا، وكان أولئك (العقيلات) مواظبين على صلواتهم، يتيممون بالرمل إذا أعوزهم الماء، ولا يسرفون فيه إذا وجد، وأنست بلهجتهم، وفيها كثير من الفصيح، ولها رنة تطربك[1]».

الاهتمام بمظهرهم الخارجي:

لقد كان في تلك الحقبة التي نكتب عنها أن لكل فئةٍ من فئات المجتمع زيًّا يتميزون به عن الآخرين، فالمزارعون لهم زيّ خاص بهم، وكذلك الحرفيون... وهكذا. ولقد كان للعقيلات زي يتميزون به عن غيرهم، فبعض هذا الزي نقلوه من مجتمعات أخرى كالعراق والشام ومصر، ومن أهم ما يتميزون به لبس العقال، والمقصب (الشطفة)، والشال والجوخ والزبون (الصاية، الدقلة)، والصدرية، والعباءة (البشت) وغير ذلك، وإنهم يمسكون عِصيّ الخيزران الغليظة وغير الغليظة، فبمجرد ما يراهم أحد يعرف أنهم من (العقيلات). ولقد أطال المستشرقون، والشعراء، ومن رافقهم في وصفهم.

قال الشاعر الفحل السياسي محمد العوني في قصيدته (الخلوج):

تلقى علينا الجوخ والشال فوقنا ... وهي عاري تبكي ولا أحد بكا لها
وإلى جيت سوق العصر تاتيك غلمةٍ ... تخشع بزبنات البريسم نعالها

تلقى: تجد، الجوخ: شبيه بالجاكيت، يصل إلى السرة، أحمر اللون، يلبسه الشجعان خصوصًا في الحروب؛ ليتميزوا به عن غيرهم، وذلك رمز للتحدي. وهي: يقصد بلده بريدة، عاريٍ: أي عاريةٌ من اللباس، فليس عليها ما يكسوها، وزيادةً على ذلك تبكي، ولم يبكِ أحد لبكائها.

(١) مذكرات الأديب المؤرخ محمد كرد علي.

سوق العصر: سوق الإبل في دمشق، وقيل: شارع في حي الميدان تكثر فيه المقاهي التي يجلس فيها (العقيلات)، غلمة: جمع غلام وهو الشاب الفتي، تخثع: تتعثر، زبنات: جمع زبون شبيه بالجاكيت، إلا أنه طويل يصل إلى القدمين، مفتوح مع الجانبين بمقدار شبر، البريسم: هو سلك الحرير يطرز الزبون به، فهو يقول: إن هؤلاء الشباب يستعرضون في هذا المكان وأقدامهم تتعثر في ملابسهم، فهي طويلة وضافية ومطرزة، وهذا ليس من الكبر والخيلاء، وإنما لثقتهم بأنفسهم وحرصهم على حسن المظهر.

وقال الشاعر صالح بن عبدالله السعيد في قصيدته (الحمية) واصفًا زيّ (العقيلات):

ولبس يشادي للرخام وفوقه ... لبس الحرير مخرج لابدانها
عاداتهم لبس الشهر جدَيِّه ... وشمغٍ وعقلٍ كنها غربانها

يشادي: يشابه، للرخام: أي الرخام الأبيض، أو يقصد بذلك الطائر المعروف، وهي ما تُسمّى الرخمة، حيث اشتهر أكثر (العقيلات) بلبس الغترة البيضاء، لبس الحرير مخرج لابدانها[1]: أي إنهم يطرزون ثيابهم بخيط الحرير، الشهر جدَيِّه: أي إنهم يلبسون الثياب المشتهرة، التي لا يلبسها إلا الفرسان والشجعان؛ لتميزهم عن غيرهم كالجوخ مثلاً. شمغ: جمع شماغ، وهو الغترة غير البيضاء، كالحمراء والسوداء. وعقل: جمع عقال وهو الذي يوضع على الرأس فوق الغترة، كنها: كأنها، غربانها: أي إن العقال يشبه الغراب بلونه، فهو أسود.

قال لورنس العرب: «إن رجال (العقيلات) مسرفون في الأناقة بطبيعتهم، وينفقون أجورهم على ملابسهم[2]».

وقال في موضع آخر: «دخل عليَّ وأنا في المعسكر رجل عقيلي، هادئ، نحيل، أسمر البشرة، قصير القامة، إلا أنه كان أنيقًا جدًّا في ملبسه، وكان يحمل على كتفه خرجًا من صنع الحسا، لم أرَ مثله من قبل، كان منسوجًا ومزدانًا بخيوط خضراء وقرمزية وبيضاء وبرتقالية وزرقاء، ومزخرفًا من الوسط وحتى الأسفل. وحياني ذلك الشاب باحترام، ثم طرح الخرج على سجادتي قائلًا: إنه لك[3]».

---

(١) لعله يقصد خرج الأبدان جيب الثوب، حيث يتركز التطريز حوله، ولا يزال يستخدم حتى الآن من قبل بعض الأشخاص.

(٢) أعمدة الحكمة السبعة: ص٤٧٦.

(٣) أعمدة الحكمة السبعة: ص٥٤٠.

تأمل هذا الوصف الدقيق لزي هذا العقيلي، وكرمه المتناهي مع هذا المستشرق.

قال الشيخ خليل الرواف: «لم تزل صورة الشيخ الوقور عبدالكريم السناني من مدينة عنيزة عالقة في ذهني، يرتدي ملابسه الأنيقة، ويخطو بثقة مستخدمًا عصاه، دون أن تفارق الابتسامة شفتيه، رغم خسائره المتتالية في تجارته، لقد كان ودودًا وشامخًا، كما هو شأن كثير من رجال (العقيلات)[1]».

العشرة والطرفة بينهم:

لأن رحلات (العقيلات) مستديمة، وتستغرق الأشهر الطوال، وليس عندهم ما يشغلون به وقت فراغهم، فلا تلفاز، ولا مذياع، ولا قنوات فضائية، ولا شبكة عنكبوتية، إلا الصحف فإنها موجودة في وقتهم، ولكنها قليلة التداول إلا عند الحكام ومن شاكلهم. لذلك، فإن وقت فراغ (العقيلات) لا يخلو من الطرفة والدعابة، مع حسن العشرة فيما بينهم.

قال الأستاذ (سليمان النقيدان): اعتاد جماعة من عقيل إذا حضروا من السفر أن يحضروا معهم لأبي علوان زبونًا، أو صايةً، أو سديريًّا (صدرية)، أو ما شابه ذلك هدية منهم، وهو بدوره يذبح لهم، ويعشيهم، ويقضون ليلة ساهرة سامرة. وذات يوم وهم عائدون من سفرهم اتفقوا فيما بينهم أن يختبروه ليروا ماذا سيحدث، فيخفون الهدية، ويأكلون (الذبيحة). فلما حضروا، وتناولوا وجبة العشاء كعادتهم نهضوا: أكرمك الله يا أبوعلوان، وزادك الله من فضله، دون أن يقدموا شيئًا، ففغر فاه من الدهشة! وقال: قفوا، واسمعوا:

يا الربع راس المال ما ابي لكم شين	أصبر ولو شدّت عشري ثمانِ
غرّتني الكحله ولبس السعادين	واثره جحوره ما بها إلا الحصاني

يا الربع: يا جماعة، راس المال: أي أريد رأس مالي، شين: شيء، لو شديت عشري ثماني: أي لو خسرت عشرين في المئة، غرتني الكحلة: أي خدعتني وضع الكحل بالعينين، السعادين: .....، الحصاني: الثعالب، فلم يتمالكوا أنفسهم من شدة الضحك، ثم ناولوه هديته[2]».

(١) خليل الرواف: نجدي في أمريكا، ص٧.

(٢) من شعراء بريدة: جـ ٢، ص٧٨.

«تعارف (العقيلات) على كلمة (ناصر) فإذا كانوا يتحدثون في موضوع، ودخل عليهم غريب لا يودون أن يسمع هذا الحديث، يصيح أحدهم بقوله: (ناصر). وعند سماعهم لهذه الكلمة، يغيرون بسرعة مجرى الحديث[1]».

العفة والنزاهة:

لقد ابتعد (العقيلات) عن سفاسف الأمور، وما يدنس شرفهم وعرضهم، فكسبوا ثقة الآخرين، وضربوا بذلك أروع الأمثلة، فيغارون على محارم الآخرين كما يغارون على محارمهم. ولنقرأ شيئًا من هذه القصص عنهم:

ذكر عبدالرحمن الهدية عن والده العقيلي سليمان الهدية أنه قال: «خرج القسومي من بريدة برعيتين من الإبل إلى بغداد، ومعه رعيانه وخدمه، وعندما سار مدة سبعة أيام في اتجاه العراق، شاهد مجموعة من الإبل ومعها شخص، فلما قربوا اتضح أنها امرأة، فلما دنوا منها، قالت: أين عقيدكم؟ فقال القسومي: ماذا تريدين؟ قالت: أين تذهبون؟ قال: إلى العراق، قالت: أريد مصاحبتكم. قال: حياكِ الله. فرافقتهم، فكانوا إذا وقفوا للمضحى أعطوها التمر والقهوة وخبز الجمر، وإذا وقفوا للمعشى أعطوها نصيبها من العشاء، وبعد أيام لما ارتحلوا من المضحى، وبعد مسافة، لاحظوا أن المرأة ليست وراءهم، فقلق القسومي على المرأة، وقال للرعيان: سوف أرجع لأرى ماذا حصل لها؟ وأنتم على سيركم، وبعد عودته شاهد المرأة تخرج من جرف وادٍ (شق في الأرض)، ومعها مولود. قالت: قد أخرتني الولادة، فرجعوا لسيرهم وهي برفقتهم، وتحت حمايتهم، حتى وصلت إلى مأمنها في العراق.

(١) إبراهيم المسلم: العقيلات، ص٢٩٨.